السعيد بوطاجين

نقطة، إلى الجحيم



الجزائر تقرأ
‹الجزائر تقرأ›

السعيد بوطاجين
نقطة، إلى الجحيم
ردمك: 978-9931-677-24-6
الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2018

الجزائر تقرأ
8 شارع حساني يسعد، الجزائر الوسطى
مدير النشر: عبد الرزاق بوكبة
إيميل: nashr@dzreads.com
/dzreads @dz_reads dzreads.com



السعيد بوطاجين

نقطة، إلى الجحيم

قصص



سيمفونية الفناء الوشيك

نزل الزعيم الأكبر إلى المدينة الفاضلة بعد سنين من سعال حاد أصبح له ذيل وأنياب. لاحظ أنها امتلأتِ بذباب أزرق غزا الواجهات العمشاء والمحال التجارية والحلوى واللبان والمساجد ووجوه الشعب العزيز الذي تفانى في حبه والثناء على كسله الحميد. لكنه تساءل عن مصدر هذه الكائنات الدخيلة التي لا عهد له بها في السلطنة البهيجة. كان ذبابا ضخما يرتشف الشاي المنعنع مع مريدي المقاهي وسكنتها، يتجشأ ويتثاءب ويقول شبعت، أريد سيجارة، يرددها تارة بالدارجة وتارة بفرنسية متآكلة الأطراف، ولم يعد أحد يهتمّ بشأنه أو يقاومه. كان الناس ينظرون إليه متعبين ويسدلون العيون قانعين بقدرهم الذي كتب لهم ذلك في دفتر الوقت، ومع الأيام أصبح الذباب مواطنا فوق العادة، وهكذا راح يقف معهم في الطابور أمام البلدية، يزاحم الناس للحصول على البطاقة الوطنية، وعلى سكن يليق بمقامه العالي.

ما الذي يحدث في هذه الدنيا؟ تساءل الزعيم الأكبر في قرارة نفسه وهو يهشّ بمروحته ذبابة حطت على أرنبة أنفه مرفرفة الجناحين المطمئنين، فرحة بمطارها الجديد الذي بدا لها نظيفا وناعما، أفضل من أنوف الرعية الوسخة التي لا تستحم بالعطر. هل حصل مكروه ولم يكتب لي المستشارون تقارير مفصلة لأعرف الحقيقة كاملة؟ لا بدّ أن في الأمر إنّ، لا شكّ أنّ محيطي مناوئ لي. لا ثقة في هؤلاء.

أجل. جرّبتهم مرارا وحفظتهم، بشر لا تأخذهم عزة بالنفس. المستشارون كلهم لا يخبرونني سوى بما تراه أمعاؤهم التي أصبحت بطول السلطنة البهيجة. يلزمني مراجعة كلّ شيء في هذه البلاد، جغرافيتي العظمى التي لن أتنازل عنها، حيا وميتا، إنها ملاذي الوحيد وسرّ بقائي في الكون. لا ثقة في هؤلاء الضالين، هؤلاء الشواذ، هذا الوباء الكاسح القادم من أدغال القارة. هكذا أصبحت أراهم مذ اكتشفت أفعالهم التي لن يقدر عليها الشيطان. يا للمسكين، كان عليه أن يتدرب أكثر، أن يغيّر خطته قبل الوصول إلى هنا، أن يعرف من هؤلاء.

لا تتعب نفسك يا مولانا، فاجأه وزير الذباب الأزرق، ثمّ أردف متلعثما: سنهش الذباب ونبعده عنك لئلا يؤذيك. هذه وظيفتنا الوحيدة في السلطنة البهيجة. أنت تفكر وتقود البلاد إلى حيث شئت، هذه مهمتك الأولى والأخيرة، أمّا نحن فنهتمّ بالباقي، هذا الذباب الذي تراه من مهام الوزراء والحاشية، من مهامنا نحن الموالين

لك ولسياستك الراشدة التي أخرجت الرعاع من الظلمات إلى النور.

ـ لماذا لم تخبرني؟ سأل للوزير الذي كان ملتصقا ببرنسه الوبري الأبيض الطويل، ولم الناس مهزومون هنا؟ يبدون لي تعساء وقانطين، من أين أتاهم كلّ هذا الملل الضاج؟ هذا البؤس؟ لماذا يبدون لي صغارا ومقهورين، كأنهم خرجوا من حرب خاسرة، أو ذاهبون إلى حرب لا حظّ لهم فيها. هل حصل لهم مكروه في غيابي؟

استمع إليه الوزير وهو يبعد الذباب عن وجهه بمروحة الداي التي حافظ عليها من عقود. لم يجد إجابة مناسبة لسؤاله. لكنّ التجربة علمته ما لم يتعلمه في المدرسة، سيقول له ما يشاء، وسيصدقه لا محالة، السلطان عاش في السحاب ولا يعرف شيئا عن رعيته التي ظلت تائهة في الشعاب والدروب الملتوية. من أقام في زحل لن يعرف لغة أهل الأرض. لن يكتشف الحقائق لأنه من هناك، من مجرّة أخرى، كأنه يعيش في قاموس أو كتاب، مجرد ألفاظ وجمل، مجرد أوهام وأخيلة، ما يشبه قصيدة عاطفية في زريبة ما، في خمّ، في إسطبل، في حفرة سحيقة. السلطان لا يزال هناك، بعيد جدا، والرعية هنا، تحت الأرجل، كما أردنا لها أن تكون.

ـ هذه نعمة كبيرة أنعم الله بها على الرعية الفاضلة يا مولاي، ردّ عليه وزير الذباب دون تفكير، ثم أردف بعد ثانية وهو يمسح جناح برنس جلالته: لو كان هناك خطر لأخبرتك أيها المبجل، مجرد ذباب أسرف في حبّ الشعب العزيز وقدّره حقّ قدره. اعلم يا مولانا أنّ

الناس لا يريدون التخلص منه، لا يرغبون في طرده من جغرافيتهم، لا يتحركون، لا يرغبون في العمل، لقد ألفوا التثاؤب وعبادة النفط، عادة سيئة يا سيدي. الذباب نعمة وليس عقابا، إنه يشبههم، كأنهم هو، وكأنه هم، يطير ويثرثر مثلهم، يطنون مثله، الوسخ يحطّ على الوسخ، أو كما قالت الدروس القديمة: وافق شنّ طبقة. لا فرق بينهما.

لم يجبه الزعيم الأكبر. تجوّل في شوارع المدينة التي تغيرت بمناسبة زيارته وغدت حديقة. غرست الأزهار والأشجار وصبغت الحيطان والأرصفة بالأخضر والأبيض، أمّا المتشردون والسكيرون ذوو الثياب القذرة فقد أمر الحاكم العام بصبغهم بالأحمر ليكونوا منسجمين مع الورد، مع الراية والعشب، في حين تمّ طلاء المتشردات بألوان زاهية. لكنّ الزعيم الأكبر لم يكن مرتاحا. بدا له الأمر غريبا، كان الذباب يطنّ دون تقشف، وعلى الأعين العمشاء للشعب العزيز استقرّ حزن يشبه حزن العبيد، وكان الزعيم الأكبر يدشّن المنجزات التي لا أثر لها، وكان يتساءل في قرارة نفسه عن السبب الذي جعل الرعية كئيبة، منغمسة في تفكير عميق لا معنى له.

....

بعد شهر من زيارته المفاجئة للمدينة لاحظ الزعيم الأكبر أن القصر امتلأ بطنين الذباب الأزرق. لم يعد يسمع ما تقوله له الحاشية في الاجتماعات التي لا تتوقف. كان طنينا مخيفا جعل القاعة الكبيرة تهتزّ، كما لو أنّ محركات القطارات القديمة تعزف سيمفونية الفناء

الوشيك، وكان ذلك مخيفا كالزلزال والطاعون.

فكر في الرعية وقال في سرّه مستاء: فهمت كيف غزا الذباب المدينة، لكني لم أعرف كيف وصل إلى القصر بهذه السرعة المخيفة. هل القصر مهمل إلى هذا الحد؟ أين العسس؟ سأسألهم. أجل. سأسألهم ماذا كانوا يفعلون طوال حياتهم في هذه النعمة، ولماذا لم يتحركوا كالناس الذين هم هناك في عواصم الدنيا. لماذا لم يؤمّنوه من غزو الحشرات، لا بدّ أنّ هناك خللا ما في السلطنة البهيجة.

تنحنح بجهد جهيد ونظر إلى الحاشية المتدلية على الكراسي الوثيرة وهي تتثاءب وتتجشأ دون هوادة. لم يعجبه المنظر المقزز، بدا له تعيسا، وأدرك بحدسه أن الذباب تسلل إلى القصر من المدينة الفاضلة التي سكنها الوباء، وإذ سأل الوزير أجابه دون تفكير: نحن عادلون في أمور الدنيا، لذلك قررنا اقتسام الذباب مع الشعب العزيز. المسألة مسألة نزاهة، قضية وفاء للعهد. لا فرق بين القصر والمدن الملعونة.

سألتك عن الحقيقة فلا تكذب. لا يمكنكم أن تكونوا عادلين ما حييتم. نهره الزعيم الأكبر بصوت مرتفع لم يعهدوه، ثمّ اشتعل: اذهب إلى الموضوع، لا رغبة لي في رؤيتك بعد الآن.

سأصارحك يا مولانا ووليّ نعمتنا، سأقول لك الحقيقة المؤلمة: كنّا نفكر بالنفط وما في الأرض من ذهب ومعادن نفيسة، نحن كما

العربات، إن نفد البنزين توقفت. توقفنا عن التفكير من عقود، مذ جفت الآبار ونحن بطالون لا خلية فينا تشتغل، ما عدا خلايا الأمعاء، وهكذا عوقبنا بالذباب والجرب والحصبة، بانتظار الطاعون القادم من كلّ الجهات.

....

لم يعثر الزعيم الأكبر على أحد عندما عاد ليتفقد المدينة الفاضلة وشعبه العزيز. كانت الأرض تتلألأ بهجة، عادت العصافير من المهجر بعد النفي والتقتيل، سقط المطر مدرارا، تفتحت الزهور التي كانت خائفة من الاغتيالات الغامضة، وغاب الناس كلهم عن الأرصفة الوحيدة التي استعادت مجدها وغدت براقة.

حزن جلالته حزنا شديد اللهجة وفكّر في أمة يحكمها ليبقى سلطانا يهابه الإنس والجنّ. لم يستقر على فكرة واضحة، وإذ هام على وجهه في القفار والبراري عثر عليه منزويا في مرج سعيد بقثائه وينابيعه المتلألئة. كان زاهدا هناك، وكانت الماشية السعيدة ترعى مطمئنة بعد اختفائهم من البلاد. نظر إليه طويلا وكلّمه بصوت خفيض لا يبين: ألم تعرفني أيها الفاضل؟ الظاهر انك لم تعش في العاصمة.

تأمله بكبرياء وأومأ برأسه أن لا، لا أعرفك ولم أرك من قبل، لا في الحلم ولا في اليقظة، ولا أحب أن أراك في رقعتي، ثمّ هز بكتفيه إلى الأعلى واستمرّ في البحث عن شيء ما، دون أن يعيره أدنى اهتمام.

في حين بقيّ فخامته فاغر الفم لا يريم، كأنما أصيب بدهشة لم يتوقعها أبدا، ولم يصدق ما يعيشه من كوابيس.

هل تريد أن أخبرك من أنا؟ أنا الزعيم الأكبر، حاكم السلطنة البهيجة وسكنتها من بشر وحيوانات ونباتات وحجارة وحشرات. ألم تشاهد الرعية في مكان ما؟ أنا أبحث عن شعبي، ألم تمر من هنا؟ لم أعثر عليها في المدن والقرى. اختفت عن آخرها وبقيت وحدي، وأنت؟ ماذا تفعل هنا وحدك في هذه البقاع النائية؟ هل أنت نبيّ فارّ من الدنيا؟

التفت إليه مستغربا وأجابه بصوت من الصوف، دون أن يرفع رأسه عن الأرض: أنا أعمل مثل سلالتي، اتّبعت ما وجدت عليه آبائي الطيبين، ذاك ما تعلمته من الأجداد من غابر الأزمة، مسألة وعي، وراثة، لا أدري تحديدا، الشعب هو الجهد المبذول، الشعب هو الكدّ، هو المبادرة والعقل، العرق، أمّا الباقي فركام من اللحم والشحم، كساح لا يصلح لشيء. أجل. رأيته أيها السلطان المغوار، رأيت شعبك متعبا جدا من شيء ما لم أتبينه. أبصرت الذباب يطارد شعبك العزيز من واد إلى واد، من ربوة إلى ربوة، من جبل إلى جبل، من صحراء إلى صحراء علّه يستيقظ من موته. كان مذموما مدحورا فأشفقت عليه، أنا المخلوق الذي لا شأن له شاهدت العجب العجاب. هل قلت لي لماذا لم يطردك الذباب؟ سأجيبك فورا. أنا مجرد حمار بسيط. أمّا إن أردت تشكيل دولة صغيرة فهناك خلف

الرابية فلاحون تعساء يتصببون عرقا، إنهم الأصل، والباقي هراء، مجرد حشو في بهجة الدنيا.

وأصحاب القلم؟ الشعراء والكتّاب وسلالتهم، المثقفون؟ المفكرون؟ ألم ترهم في جهة ما؟ سأله السلطان مندهشا بعد أن سوّى نظاراته الشمسية وهو ينظر إلى الشمس الغاربة.

رفع عنهم القلم يا سيدي، أجابه الحمار مختزلا، ثمّ أضاف وهو يتباهى بأذنيه الذكيتين: رأيتهم في الصفوف الأولى بوجوه صفراء وشعر أغبر أشعث، وكان الذباب يطاردهم لاعنا الجميع. الحق أقول يا صاحب المجد والرفعة، سمعتهم يقرأون القصائد ويتناقشون في جلبة، ولا أحد يسمع أحدا أو يستمع إلى أحد، كانوا مثل الذباب يحاولون طرد الذباب فلا يقدرون. فاتهم الوقت. كان عليهم أن يفعلوا ذلك من قبل، قبل قرون من الآن.

......

عاد الزعيم الأكبر إلى القصر مساء ليذمّ الحاشية الكريهة التي كذبت عليه، وإذ اقترب من القصر الشاهق وجد أمام بابه الكبير سيارات مصفحة ودبابات ورشاشات وأسلحة لا حصر لها. صُفدت يداه إلى الوراء، وضع على فمه شريط لاصق، عصبت عيناه واقتاده مجهولون إلى مكان قصي لا يعرفه أحد.

لأول مرّة في حياته أحسّ بألم كبير. نظر إليهم بعينين ذليلتين. بكى

بحرقة وهو يسلّم نفسه للعسكريين الذين كانوا يحيطون به منذ نوح، وكان مطأطئ الرأس عن آخره. وقيل سمعه بعضهم يتساءل بصوت جهوري: هل كان القصر مدججا بالجرذان إلى هذا الحد؟ وكان الصدى يردد: وأزيد يا صاحب الرفعة.

أجل، موافق

ولج باب شركة المحروقات في منتصف النهار بعد نوم عميق استغرق عشرين ساعة وتسع دقائق هجرية. سلّم على البواب باستعلاء وأخبره بأنّ له موعدا مع المدير العام لغرض لا يعني أحدا في البرية، لا البواب ولا النواب ولا الكاتبات ولا الذباب، وكان يحمل في يده ملفًا ضخما طواه أربع طيات ووضعه تحت إبطه بانتظار أن يستقبله استقبالا بهيجا يليق بسعادته.

لم يعثر على البساط الأحمر كما تخيّل قبل وصوله المبكر، ولم ينتظره أحد في الباب الخارجي، لا الخدم ولا الحشم، لذلك اغتاظ وجحظت أحاسيسه في الرأس الذي كانت تقطنه أفكار عارمة وشعيرات قليلة صبغها بالأخضر الفاتح ليبدوّ مهمّا، وكان يقول في سرّه: من يحسب نفسه؟ أوصاه والدي بأن يشملني بعنايته لأني ضروري للشركة العمومية. إنها ملك للدولة، دولة والدي، وليست دولته. لي بذلة رياضية وحذاء إيطالي وأقراط ذهبية وشعر أملس ناعم

أصقله كلّ نصف ساعة، ووالدي شخصية في الوزارة، نعم. إنه سيّده ووليّ نعمته، ولو شاء لأقاله من منصبه وأصبح بطالا كبيرا، متسكعا كالآخرين. لا شيء، مجرّد خردة من الخردوات التي تملأ هذه المدينة.

أهلا وسهلا بالأمير الصغير الذي اشتقنا إلى رؤيته، ما شاء الله، تصورتك بشكل آخر. قال له المسؤول الكبير مرحّبا بسعادته، ثم أكمل مطأطئ الرأس: لقد حدّثني عنك أبوك البارحة ليلا وأخبرني في الهاتف بأنك قادم فانتظرتك طويلا، وصلت قبل الثامنة، ولولاك لما جئت إلى هنا، لي اجتماع في العاصمة. اجتماع تاريخي مع وفد أجنبي. تفضل. اجلس حيث شئت. المكتب مكتبك والشركة شركتك والبلد بلدك. نحن في خدمتك، عمّالا وإطارات سامية. وأضاف في سره: حيث شاء الحيّ وجه رأس الميت، والده في الأعلى، وما شاء فعل. اللعنة على هذه الدنيا.

جلس ابن الشخصية المهمة جدا على الأريكة المواجهة للمكتب الفاخر، وضع رجلا على رجل، أشعل سيجارة وأخرج الملف المكوّن من عدة شهادات قال إنه لا يملك سواها إلى حدّ الساعة، لكنها كافية: شهادة الميلاد، شهادة السوابق العدلية، شهادة الجنسية، شهادة السنة الثالثة ابتدائي، وصورتين طبق الأصل من رخصة القيادة وبطاقة التعريف الوطنية، ومن الجيب الخلفي أخرج جواز السفر وناوله إياه مبتهجا. لم يكن له وقت كاف لاستخراج نسخة ممضاة في البلدية المزدحمة بالخلائق التي تقضي حياتها في الطوابير.

ملف مهمّ جدا. علّق المسؤول الكبير وهو يلعب بقلم مذهب كان يمرره بين أصابعه، ثم أردف بعد أن مسح العرق المنحدر من الجبهة الواسعة: أيها الأمير الصغير، أنت أهل لهذا المنصب الذي بقيّ ينتظرك شهورا ولم تأت لتشريفه وتشريفنا، لتشريف الشركة وطاقمها. جاءتني عدة طلبات ورفضتها، لماذا تأخرت إلى اليوم يا أستاذنا؟ أنت شخص رائع، ولك كفاءة عالية تؤهلك للتسيير. هذا المنصب يليق بك.

سوّى ابن الشخصية قبعته البيضاء التي تحمل العلم الأمريكي، وضع نظاراته الشمسية على الرأس، وأجابه باقتضاب وهو يتراكم على الأريكة الجلدية التي شدّت عينيه: كنت منشغلا بقضايا أهمّ من هذا العمل. لا وقت لي لآتي إلى هنا، ولولا إلحاح الشيخ لما جئت أبدا. لم أكن بحاجة إلى عمل في الإدارة المحلية. هذا أمر لا يعنيني، أنا أكره الإدارات والإداريين، إنهم يشبهون الطاعون. يلزمني منصب مستشار. أتجول في العاصمة وأعطي التوجيهات بالهاتف النقال. لا أحب البقاء ملتصقا بالكرسي كالأبله، مثل هؤلاء. هذه مهنة تليق بالمتقاعدين والمعاقين حركيا. هل فهمتني؟

استمع إليه المدير العام باهتمام فاخر وعلق: أجل. لا وقت لك، من أين يأتيك الوقت في هذا الوقت؟ ما رأيك في منصب رئيس مكتب تشغيل الإطارات والجامعيين العاطلين عن العمل؟ أظن أن يناسب حضرتك، هناك حاملو شهادات عليا يتسكعون بحثا عن

قوت يومهم، أمّا مهمتك أنت، كحامل شهادات كثيرة من مختلف البلديات، فتكمن في دراسة طلباتهم، طلبات التشغيل في المؤسسة، مؤسستك. أقصد الموافقة على توظيفهم أو عدم الموافقة، ستجد مهندسين وبيطريين وأساتذة ونفسانيين ومتخصصين في علم الاجتماع، وغيرهم من الذين ينتظرون توظيفهم في شركة المحروقات التي يشرف عليها والدك المبجل من ثلاثين سنة.

احمرّ وجه الولد الذي بدا منزعجا من المسؤول الكبير. كان ينتظر أن يعيّنه نائبا له، أو مديرا للمالية والعلاقات الخارجية ليخرج من البلد الخارج عن الوقت والقانون. ربمّا لم تكن له مؤهلات وشهادات كافية، أو لأنه لا يتقن لغة واحدة للتواصل مع الشخصيات المهمة. لكنّ المنصب لا يناسب هيئته ولباسه والمراهم وشعيرات رأسه الصاعدة إلى السماء كهيئة هدهد.

ألا يوجد منصب آخر يلائمني؟ أقصد منصبا أرقى، وظيفة مشرفة لا تسيء إلى سمعتي في الحارة؟ أنت تعرف أني ابن شخصية كبيرة في الشركة، سيضحك عليّ كلّ الجيران، سيقولون إن ابن عزرائيل قنع بعمل لا يشرّف الأهل والجيران، لا يشرّف العائلة الكبيرة، سيتخذونني أضحوكة. أنا متأكد. أعرف ردّ فعل الشباب.

نظر إليه المسؤول الكبير وتجمّد على كرسيّه الفاخر بحثا عن حلّ عاجل ينقذ به نفسه، ستهدده الشخصية التي تتحكم في شركة المحروقات وتطرده من العمل ومن الحياة. ستقدم تقارير عنه لأنها

تعرف سيرته السيئة السمعة. ستقبض عليه من عنقه وتخنقه ككيس من النخالة، وسيعرف معنى الحبس.

أجل، منذ وقت طويل وهو في باب السجن ينتظر دوره، لن تنفعه بذلته وربطة العنق والحذاء الملمع، لا مجال للفهم عندما تأتي القرارات من فوق. نفّذ واسكت أيها العبد. هذه هي الدائرة الجهنمية الخالدة، إمّا آكل أو مأكول، شبكة معقدة عليك أن تحسب لها جيدا، أن تتوخى الحيطة مهما كنت، أن تقيس بدقة متناهية وزن كلمتك وخطوتك القادمة، نحو الجنة أو نحو الجحيم. الدائرة نافعة أحيانا، في سياقات، لكنها تستدعي الانحناء جيدا، تستدعي التنازل الدائم عن ذاتك، تستدعي الكذب، الرياء، مسح أحذية البغل والخنزير، وهكذا، وعليك أن تختار بين أمرين: أن تكون نظيفا فتطرد، أو أن تتسخ فترتقي، كما فعلوا. الوسخ هو الذي يجعلك مهمّا.

طيب، قال له بصوت خفيض، هذا منصب مؤقت بانتظار أن أجد لك ما يناسبك في هذه الشركة العمومية، ستعمل ساعة واحدة في اليوم، أو نصف ساعة، أو عشر دقائق، أو أقلّ، سأتكفل بالأمر، أعرف ما تفكر فيه، أنت لم تبلغ العشرين، وبعد شهر أو شهرين ستكون لك وظيفة مهمة بمناسبة عيد ميلادك السادس عشر. تأكد من هذا. لا تقلق أبدا. سأتصرف، لكنّ، قبل ذلك، ومن أجل تسوية القضايا الإدارية والعمل في شفافية، أرجو منك أن تقدم لي طلب توظيف لأضمّه إلى ملفك المهمّ، الشهادات كافية وهيئتك تليق بنا جميعا،

مستوى السنة الثالثة ابتدائي مشرّف جدا. بقيّ شيء واحد: لو أنك صبغت شعرك بالأخضر القاني لكان ملائما أكثر لشكلك ولمحيط الشركة التي غرست مؤخرا ثلاث شجيرات كلفت ميزانية كبيرة للدولة، دولتنا. مسألة ذوق على أيّ حال. أنت حرّ. هل أنت موافق على الفكرة؟

أجل، موافق. ردّ عليه ابن الشخصية مقهقها وهو يترك الأريكة الوثيرة. كيف لا أوافق؟ أخذ ورقة وقلما من مكتب المسؤول الكبير ثم انزوى جانبا، وبعد دقائق قدم له طلب استقالة كتب بالعامية، وطالب بتعويضات عن الوقت الذي ضيّعه في شركة المحروقات، وعن الأضرار النفسية التي تسببت فيها الخيبة العظيمة التي لا قبل لها ولا آخر، وقبل أن يخرج من الشركة أخرج النقال وهاتف والده. كان غاضبا ومحبطا.

الإرث

كان متكئا على الوسادة يفكر في أمر ما، في كل شيء وفي لا شيء، المسبحة في اليد وفي عينيه فراغ مهيب لم يفارقه من سنين. كان نصف بوذي ونصف تائه، وحيدا وقانعا، كمن يعيد النظر في الوقت عندما سمع طرقا خفيفا على باب غرفته التي امتلأت بالأسئلة مذ عرف أنه عابر سبيل في أرض ليست لأحد. المجرة ليست له، وليست لغيره، ليست للسيد وليست للعبد، ليست للغني وليست للفقير، ليست للحشرة وليست للشجرة.

عبث، سقط متاع وقبضة ريح. ربّما وصل إلى مشارف الخاتمة، إلى ذلك الحدّ الذي لا حدّ بعده، لا جزر ولا مدّ، وكان يقول في سره: عندما يتعب الجسد تصبح كل الأفعال خرقا، ما يشبه المتاهات الفادحة، سيكون الإنسان فائضا عن الحاجة، عظام تنتظر أن تستقر في حفرة ما، في جبّ النسيان، وهكذا يغدو مجرّد كان ورحل، فعلا ماضيا ناقصا لا شأن له. ما أتعس الشيخوخة وما أقبحها.

طرق الزائر ثانية وثالثة وانتظر أن يُفتح الباب بهدوء كالعادة، لكنّه لم يُفتح هذه المرة ولم يرحب به أحد ليناوله القهوة والحلوى فيتحدث كالقصدير في أمور لا يعرفها. ذاك ديدنه مذ أصيب بفتاوى المقاهي التي غرقت في الفقه مذ جاءوا مشمّرين على ألسنتهم وسيوفهم.

لم تُسمع حركة بالداخل. لا أهلا ولا سهلا، لا شيء البتة. بقيّ الخال منسجما مع نفسه كما لو أنه اكتشف جنته بعد رحلة في الظلام، وكان يقول كالمتأكد من الحقيقة الخالدة: لا بدّ أنه جاء في هذا الوقت بالذات ليستشيرني في الأمر، يريد النصح، يرغب في معرفة موقفي من النزاع الذي ظهر بعد اليوم الثالث من وفاته الغامضة هناك، في جهة ما، إن كان قد مات فعلا، إن لم سافر، إن لم يهرب منهم إلى الخلاء.

خُصص اليوم الأول للحزن واستقبال المعزين كما جرت العادة، وخُصص اليوم الثاني للصمت والترقب، وفي اليوم الثالث بدأ العراك واشتعلت النار التي لن تنطفئ إلاّ بعد أضرار كبيرة. توقعت ذلك لأني أعرفهم كجيبي وأزيد. ذرية العار. بهاليل. ستلتصق بكم لعنة الآباء إلى يوم الدين، كأنّكم لم تدرسوا يوما واحدا، لم تدخلوا المدارس، لم تطلعوا على الدين، لم تعرفوا بيوت الله، لم تشاهدوا الكتب والمقابر التي تحيط بكم من كل حدب.

اطرق أو توقف إن تعبت يداك الكسولتان بالوراثة، ردّ على الطارق في سرّه، وأضاف: عليك أن تنتظر كالآخرين، عليك أن تتريث لتعرف

أنك مجرّد زرّ في قميص مهجور، لتبصر نفسك قليلا وتعرف من أنت، لي موعد مع نفسي ومع أوراق العمر التي سقطت بلا سبب، بلا فائدة، مثلكم أنتم الذين تشبهون المكانس. بمجرد أن أغلقوا عليه قبره سعرتم كالفلفل. كنتم تنتظرون موته قبل ذلك بسنين لتقتسموا عرقه. لكنه تأخر. لم يمت قبل الأوان كما تمنيتم مرارا، أزعجكم وجوده حيّا. لم يعجبكم الأمر. هو يعمل كالعبيد وأنتم تعلفون كالبهائم. قلقتم كثيرا وحزنتم لأنه صارع المرض بشجاعة.

الحق أقول لكم اليوم وغدا، هذه هي الحقيقة، كنتم مرضه الأكبر الذي حدثني عنه بمرارة. لم يترك ذرية ترثه وترث كبرياءه. سبعة ذكور وبنت واحدة، البنت أفضل منكم، سبعة ذكور لا يساوون أرملة، لا يساوون شيئا ذا قيمة، كأنهم دود، مجرد ماء بقيعة، كأنهم جاءوا إلى الحياة ليأكلوا ويناموا مثل الدواب.

في صبيحة اليوم الثالث جاءني أكبرهم سنّا. من عادته أن يرتدي ملابس أغلى منه ويتسكع في الحارة بلا عمل. كانت أموال والده كافية ليبذر كيفما شاء، في العاشرة لباس فرنسي وفي الرابعة لباس أمريكي عجيب، بذلة أغلى منه وعطر أفضل من روحه التي دبغها الفراغ. كان يعتقد أنه يشدّ السماء حتى لا تسقط على المؤمنين. سلّم عليّ ودخل في الموضوع دون مقدمات، ودون أن يستحي من خاله الذي أصبح جلدا على عظم.

كان يعتقد أني لا أعرفه مذ كان في حجم كرة: يا خالي العزيز.

جئت أستشيرك في أمر مصيري. نحن في حيرة من أمرنا. لم نر سببا للانتظار أكثر ممّا انتظرناه. ثلاثة أيام كافية. هذه مشيئته سبحانه وتعالى وما شاء فعل. علينا أن ننسى. كلنا للتراب والدود. اقتسمنا المحال التجارية والبيوت السبعة أو الثمانية والسيارتين والشاحنات الثلاث والمآرب وما في البنك من مال على قلّته. لم يترك لنا ما يكفي لنعيش كالناس، كان يتصدق به على الفقراء. بنى الجامع، اشترى للمستشفى أجهزة وأدوية، أنشأ جمعية خيرية لعلاج المرضى، قدم معونة كبيرة لضحايا الوباء. على كل حال، لم نختلف كثيرا في الأمر، كلّ منّا أخذ نصيبه من الإرث الذي خلّفه المرحوم. بقيّ المقهى الوحيد.

يا خالي، قلت لهم نديره بالتناوب، شهرا شهرا، على أن يشتري المسيّر كل المستلزمات الضرورية. أمّا هم فرأوا أمرا آخر لا يناسبني. فكروا في مصالحهم. لم يحترموا أخاهم الأكبر الذي في مقام أبيهم. لم ينظروا إلى سنّي وتجربتي في الدنيا. اعتقدوا أني أناور، أحاول التلاعب بأموال الراحل. لست أنا من يفعل ذلك. لا أحد منهم فكّر بأني خليفة الوالد وذراعه الأيمن. لا أحد منهم قدّر ذلك.

ما رأيك يا خالي في الفكرة التي اقترحتها عليهم؟ شهرين بالتناوب، وعلى كلّ واحد منّا أن يظهر شطارته، تسيير المقهى وجلب الزبائن أمر صعب. قلت لهم أيضا عليكم أن تنسوا الشراكة، الشراكة مهلكة، على كلّ واحد منكم أن يعرف كيف يتعامل مع الزبائن لكسب المال،

للحفاظ على سمعتنا وسمعة الوالد. نعم. علينا أن نظهر قدرتنا على تجاوز الخلافات.

نظرت إليه دون أن أرى وجهه القبيح، قال لك السنّ والتجربة. أضحكني رغما عني، وقهقهت كثيرا. لم أكن بحاجة إلى رؤية كائن مثله، إن كان إنسا وليس جنّا، إن لم يكن مصيبة منقحة خرجت من حنفية أو من قناة لصرف المياه. أحببت التخلص من وجهه فورا فقلت له إنك محقّ يا رجل. عين الصواب ما ذكرته. شهر لهذا وشهر لذاك. أنت ذكيّ فوق ما تصوّرته. مات أبوك وخلّف بطلا، ابنا حكيما لا تخفاه خافية، لا كبيرة ولا صغيرة.

توكل على الله وافعل ما تراه صالحا ونافعا لك ولإخوتك وأختك الأرملة. أنا متعب اليوم. كبر خالك إسماعيل ولم يعد قادرا على الجلوس والكلام. المرض عدوّ يا ابني. لا يوجد عدوّ مثله. المرض والشيخوخة. عليك أن تتعلم هذا قبل أن تتعلّم كيف تتعامل مع الأموال، كيف تكون حرّا. كان والدك سخيا كالغيث، رجلا نادرا في هذه المدينة التي لم تعد مدينة. أنا لم أعرف رجلا غلب المال مثل والدك، كان المال عبدا له، أمّا أنتم فتعبدون المال وتتركون الخالق والفضيلة. اسمع يا ابني، افعلوا ما شئتم بالإرث الذي تركه والدكم، إنه رزقكم. أمّا أنا فلي طلب واحد ووحيد: تذكّروا أباكم ولا تتركوا الناس يضحكون عليكم، لقد بلغتني معلومات لم تعجبني. كل الجيران ينظرون إليكم مندهشين ممّا رأوه وسمعوه. أنتم جننتم. شيء

آخر: أختكم الأرملة فقيرة جدا. إنها أختكم. ولية مسكينة عليكم أن تنصفوها.

في العاشرة وصل الثاني. ولد لا وقت له من كثرة التسكع والكلام. كان يقضي ساعات أمام المرآة لصقل شعره بالمراهم التي يحفظ كل أسمائها وأسعارها ومكوّناتها وتاريخ إنتاجها ومفعولها. لم يشتغل دقيقة واحدة طوال حياته. لم يكسب قرشا واحدا ليغسل عاره الخالد. طرد من المدرسة في الصف الثالث ورفض كل المناصب التي اقترحت عليه في الإدارة المحلية وفي البلدية. السيد يريد أن يكون وزيرا أو أميرا أو رئيس جمهورية أو إمبراطورا، يريد أن يحكم البلاد والعباد لأنه يزعم أنه أفضل من البلاد والعباد.

عندما كنّا في الثلاثين كنّا شيوخا على وشك التقاعد، كنّا ننتظر الموت بفارغ الصبر لأننا استهلكنا أجسادنا وحياتنا. استعبدنا الأغنياء والغزاة والذين خلفوا الغزاة من إخوتنا في الدين. أصبحوا أكثر شرا وفسادا منهم. عندما أتذكر ذلك الوقت يؤلمني ظهري، تؤلمني العظام والمفاصل كلها.

كنّا في الميناء نحمل أكياس الناس ومتاعهم ونشحن الطنان في بواخر الناس بأجر زهيد لا يكفي للعيش على الكفاف نصف شهر، أجل، ولم نعرف عطلة نهاية الأسبوع أبدا. لم نعرف الأفراح والأعياد كالآخرين. يا للوقت كيف تبدل. هؤلاء يريدونها جاهزة. يريدون من يشتري لهم كلّ شيء، من يطبخ لهم، من يناولهم الطعام متكئين على

أسرّتهم، من يضع القوت في أفواههم الكبيرة ويشكرهم على بذل الجهد لابتلاعه جاهزا.

قال لي الآخر وهو يبتلع الموز والحلوى ويسوّي تسريحة شعره التي لم أر مثلها من قبل: أنت تعرف يا خالي بأن المرحوم ترك لنا مقهى في وسط المدينة، مقهى الأحباب كما يسمونه. قلت لأبناء أختك نسيّره بالتداول لتسوية الخلاف، كلّ منا يديره شهرين متتاليين، يشتري كل المستلزمات ويدفع أجور العمّال ويصلح ما وجب إصلاحه. يتصرف كمالك حقيقي طوال هذه المدة، وهكذا بالنسبة للثاني والثالث والرابع. لم يعجبهم رأيي. أنا أعتبره رأيا سليما وحلا مثاليا يجنبنا كلام الناس ونميمتهم. يظنون أنفسهم حكماء. ولهذا جئتك مبكرا لإصلاح ذات البين. أنت مجرّب ولك سلطة عليهم وعلى الوالدة، على أختك.

أنت محق أجبته دون تردد. أنت الحكيم الوحيد ما بين إخوتك السبعة الذين لا يعقلون لأنهم دواب وأنعام. والدك خلّف رجلا ونصف. يجب أن يستشيروك في كل ما يخص العائلة واليتامى والطقس والمستقبل. قل لي. من حضر جنازة والدك في السعودية ممن تعرفهم من الحجاج؟ الظاهر أنه ألقيّ به في حفرة وأهيل عليه التراب دون أن يعرف أحد قبره. هكذا سمعت، والله أعلم. ناس هذا الوقت لا يؤتمنون، يكذبون على أنفسهم بلا سبب.

زعم أنّ صديقا له من الشرق حضر الدفن وأحضر الإمام والشهود.

مات في التدافع قبل أن يرجم الشيطان. دهسه حجاج بيت الله الحرام وهرسوا جمجمته وتركوه هناك مع الجثث، واستمروا في الرجم دون أن يكترثوا بالأمر، كأنه حشرة. ثمّ جاء أحد مرافقيه بالصدفة وتعرف إليه من لباسه وبعض ملامح الوجه. كان كله دما. كان ممزقا. لم يجمعه إلاّ بمشقة. كثر الله خيره عل كل حال. سأبحث عنه في الأيام القادمة لأتأكد من طريقة وفاة الوالد ودفنه في الحرم الشريف.

عندما غادر البيت جاء أخوه الثالث. كانت الساعة تجاوزت منتصف النهار. وصل أبو لحية كما يسميه أصدقاؤه بالعربية الفصحى. لا أدري ماذا كان يأكل ليصبح دائريا، برميلا من الشحم. قال لي بعد أن بسمل وحمدل وصلى على الرسول وآله وصحبه والأنبياء أجمعين، بعد أن لعن الشيطان والكفرة الفجرة، بعد أن أكل كلّ ما فوق الطاولة من فواكه وحلويات، بعد أن مسح كل شيء وهو يكبّر: اسمع يا خالي. لم تبق سوى أنت في العائلة، وأنت الوحيد الذي يحل المشكل.

أبناء أختك لا يعرفون الله وطاعة الإمام والكبير، كأنهم يهود. كأنهم ليسوا أبناء إسماعيل الشاوي. لا أحد منهم يحترمني، لا أحد منهم يسمع كلام الرسول عليه الصلاة والسلام. قلت لهم على كلّ واحد منّا أن يسيّر المقهى ثلاثة شهور. ثلاثة لهذا وثلاثة لذاك لتجنّب الخصام والعار. قلت لهم سيضحك علينا الجيران وأبناء الحارة، سيتخذوننا عبرة، سيقولون مات أبوهم فتفرقوا بسبب الإرث، تنازعوا على وسخ الدنيا وأهملوا وصايا الوالد.

كنت أستمع إليه مكرها، ودون أن أفكر في ما قاله قلت له إنك محق. أنت تعرف الدين وعذاب القبر، تصلي الفجر والصبح في الجامع، تعرف الشورى والشفع والوتر والنوافل، تصلي التراويح، تصوم. لا أعرف إن كنت تتصدق. أنت معذور لأنك لا تعمل. تعيش أنت وزوجتك وأبناؤك الثلاثة بمال المرحوم. أظن أن الصدقة لا تجوز في هذه الحالة. المهمّ يا شيخ الشيوخ. كلّ ما ذكرته يشبه الكلام المنزل. لو لم ينقرض زمان الأنبياء لحسبتك نبيّا.

اسمع جيدا: يجب أن يحترموك كما يحترمون الرسل وأولي الأمر. اذهب إلى الدار وخاطبهم بالتي هي أحسن. لا أجد فكرة أجمل من هذه. لم يخلّف إسماعيل الشاوي يتامى. أنت وحدك تعوّض جماعة من العلماء والأئمة والمفسرين والفقهاء. قل لي: مع من ذهب والدك إلى الحج؟ وهل رافقته إلى المطار؟ بلغني أنك انتظرته إلى أن ركب الطائرة، إلى أن أقلعت باتجاه البقاع المقدسة.

قال لي ذهب مع جماعة من العاصمة، مع ناس في سنه كانوا يأتون إلى المقهى يوميّا ويتحدثون في أمور الدنيا والآخرة. كان ذلك شغلهم الوحيد بعد أن كبروا وتعبوا من الدنيا. كانوا أربعة أو خمسة قرروا أن يسافروا معا إلى مكة المكرمة. هذه الشعائر تتطلب رفقة، تتطلب ناسا يمكن الاعتماد عليهم. قد يتعب العبد الضعيف، قد يمرض، وقد يموت لا قدّر الله، من يدري؟ لذلك اتفقوا على تنظيم رحلة جماعية من أجل القيام بالمناسك التي تتطلبها العمرة.

أصارحك: لم يستشرنا الوالد، لم يحدثنا في الأمر، جهّز الحقيبة باكرا وخرج دون أن يودعنا. ربمّا كان يريد القيام بذلك سرّا. أنت تعرفه جيدا. كان لا يريد الظهور والتباهي، كل ما فعله ظل بينه وبين نفسه وربه. لم نكن نسمع شيئا عن مشاريعه. ربمّا كان يعتبرنا صغارا أو طائشين. كنت أريد توديعه في المطار لكنه أقسم بأغلظ الإيمان. لا أدري في أي شيء كان يفكر. ومع ذلك تعقبت أثره إلى أن صعد إلى الطائرة، ثم رجعت إلى البيت مطمئنا. دعوت له بعودة ميمونة. الحق الحق، لم أفهم سلوكه، ربما أراد أن يكتم السرّ. لا أدري لماذا أصبح لا يحدثنا في شؤونه.

وبعد دقائق قليلة وصل الرابع. قلت في سري هذا يوم مشؤوم لا محالة. ما بهم هؤلاء؟ كأنهم يريدون أكل لحم أبيهم. الرجل مات قبل ثلاثة أيام، ما زال حيا تقريبا، لعله يسمعهم، لعله يتململ في قبره ويلعنهم. الوقت غير مناسب لاقتسام الإرث. كان عليهم أن ينتظروا أكثر. الإنسان أولى من المال، الإنسان من لحم ودم، إنه روح مسكينة تعبت وحنّت إلى الراحة بعد أن حان أجلها فذهبت إلى السماء باكية.

ستبقى الروح مشدودة إلى الأرض والعلامات التي شكّلتها، الأماكن، الحكايات، الذكريات، الماء، التراب، البكاء. الروح ليست حجرا. لن تهرب الأموال يا أولاد، لن يهرب المقهى إلى أمريكا أو إلى الحبشة. سيبقى في مكانه، كما هو. لن يستولي عليه أحد. سيظل

هناك بانتظار أن يستولي عليه أحدكم، أن يتلعه كما يتلع القوت دون يعرف قيمته.

اسمع يا خالي. قال بنبرة سلطان بطّال، تبدلت الدنيا وفسد الإخوة. أنت تعرف أن الراحل ترك لنا مقهى في الساحة الكبيرة بوسط المدينة، هناك مقابل البريد المركزي. لن أعلّمك شيئا. قلت لهم لا حاجة لنا به. نبيعه ونقتسم المال بيننا، أو نأتي بخبير ليقيّمه إن كان أحد منّا يرغب في الإبقاء عليه كذكرى، أو كمحلّ يسيره كما يشاء، يبيعه أو يسكن فيه أو يسكر فيه أو يحرقه أو يجعله بيتا للصلاة. قلت لهم أيضا على كلّ منّا أن يتصرف وفق ما يفكر فيه. كل شاة تعلق من رجلها. لكل منّا ربّ يحميه. عندما كان الوالد حيّا كان يتصرف كما يشاء. لماذا لا نفعل مثله؟ لقد كبرنا ولم نبق صغارا، وعلى كل واحد منّا أن يتحمل مسؤولياته. ما رأيك يا خالي؟

نظرت إليه غير مبال بما قاله وأجبته دون تفكير: أنت محق أيها البطل. تتكلم مثل الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم. أين كنت مختبئا كل هذه المدة؟ من يملك هذه الحكمة الجليلة يجب أن يسيّر الأمة كاملة، أن يصبح رئيسا، أن يستشار في كل كبيرة وصغيرة. كأنك كتاب مليء بالعلم، بالأسرار التي لا أحد يعرفها.

اسمع جيدا ما أقوله لك: خالك قرأ عدة كتب، لكنه لم يعثر فيها على هذه العبقرية التي تسكن رأسك. تريد بيع ما خلّفه والدك وتقتسم المال معهم؟ لا أجد فكرة أذكى من هذه. هذه علامة من

علامات النبوغ. لو كنّا في زمن الأنبياء لاعتبرتك واحدا منهم. لا شيء ينقصك، ما عدا السنّ. تبدو لي صغيرا. لم تبلغ الأربعين بعد. عليك أن تسرع لبلوغ هذه السنّ. من يدري؟ قد تصبح رسولا.

....

مرّت أيام قليلة واتفق الإخوة السبعة على كيفية تسيير المقهى، فجاءوه مساء وقالوا له مبتسمين: وجدنا الحلّ يا خالنا. نظر إليهم ببرودة وأجاب: قلت لكم إنكم محقون كلكم. آراؤكم سديدة وفيها نبوة. أفكاركم لا مثيل لها في الدنيا. أحببت أن أخبركم بشيء لا تعرفونه، ولم تفكروا فيه. سيصل والدكم غدا بعد رحلته القصيرة. حدثني البارحة في الهاتف وقال إنه لم يذهب إلى الحج. كان في الحمّام بإحدى مدن الشرق. كان يبحث عن الراحة التي افتقدها من سنين بسببكم. نعم، بسببكم انتم، هكذا قال لي، سأنتظره في المحطة ولن أخبره بما فعلتموه برزقه. لن أقول له كلمة واحدة. لن أفضحكم أبدا، سيتصرف. أجل. سيرى كيف اقتسمتم الإرث وهو على قيد الحياة، سيرى كيف بعتم جهده لتنعموا في رزق الرجال الحقيقيين الذين قصمت ظهورهم لتنعموا نائمين.

الموت لا يحتاج إليك

أيقظه طرق شديد على الباب الحديدي المسلح فنهض متثاقلا وهو يتثاءب بلذة عارمة توارثها عبر الأجيال التي نامت ولم تستيقظ إلا لتتغذى، ثم تنام مزهوة بانتصاراتها. فرّك عينيه من الإعياء وتساءل عن مصدر الفوضى في هذا الوقت المبكر من فصل قائظ لا يطاق. مرّر يديه على وجهه فتفاجأ إذ لاحظ أن جلده التصق بالأنامل كعجين الأسنان، لكنه لم يفهم شيئا مما لاحظه في لمح البصر.

كانت هناك قطع من اللحم النيئ على أطراف أصابعه الرخوة، وعندما همّ بالوقوف أحسّ بأنّ على خديه حشرة تتمطّى، حشرة أو أزيد. مدّ يده اليمنى لصدّها فأدهشه المنظر المرعب. ارتفعت نبضاته وأحسّ بقشعريرة تجتاز المفاصل. كانت الدودة تتلوى بين أصابعه العمشاء التي لم تستيقظ بعد، وإذ همّ بالتخلص منها لاحظ أنّ على وجهه وأطرافه عشرات الديدان المحتفلة بعيد ما. تقزز من المشهد وراح ينفض جسده ولباسه غير مصدق ما يراه، وحاول أن

يفهم ما حصل أثناء نومه.

بيد أنّ الطارق لم يتوقف عن دكّ الباب بعنف أزعج الجيران فخرجوا من جحورهم الضيقة محتجين ووقفوا في الشرفات والأدراج يسمعون أو يتفرجون كديدنهم مذ خلقت النميمة. فتح الباب على مضض ليعرف من هذا الكائن الذي لم يتوقف عن تقويض هدوئه الناعم كهيئة بلبل في أعالي الجبل، أو كصوفي قديم في خلوته البعيدة. كان الجيران ورجال الأمن قدّام شقته يحاولون عبثا كسر أقفال الباب الصدئ كأبواب المدينة التي أصبحت قفصا كبيرا مذ قوّضت الحرب الأهلية النفوس المطمئنة وحطّ الخوف في المدن الملعونة، ثمّ غدت الاعتداءات ناموسا من نواميس مدينة بني أنف الكلب.

تذكر المتوكل على الله في شريط عابر أنه رقد بعد أن ابتلع كلّ ما عثر عليه في الثلاجة الهرمة التي ملأها قبل أسبوع من حلول شهر الصيام. شرب ماء وعصيرا ولبنا وقهوة معتقة لها رائحة التراب. قال سيحل رمضان غدا وعليه أن يقتات كما لم يفعل منذ أجيال. مسح كلّ ما وجده على طاولة السحور ودخّن سجائر تلذذ بطعمها الذي لم يعرفه من قبل. لم يستطع المشي، أصبح برميلا ممتلئا بالعلف. لذا شرب المهدئات والمنومات في فراشه، وقبل الإمساك بعشر دقائق لعن الشيطان، ذهب إلى المطبخ وأكل حلويات وتمرا وشرب حليبا لمقاومة يوم طويل من الصيام في صيف يذيب الكلمات في الفم فتخرج خاملة كما اللبان، ملتوية وعديمة المعنى.

كان ينوي أن ينام نوما طويلا ومريحا ويستيقظ خمس دقائق قبل أذان المغرب لئلا يتعب أو يغضب فيفسد يومه بالهمز واللمز وأحاديث العجائز. العطش في فصل الصيف لا حلّ له سوى إغفاءة الموات، وهناك الجوع المبين. لا يمكن أن يصبر كلّ هذه الساعات دون أن يركبه الجنّ، ستجف أمعاؤه كلّها وتسعر مثل الفلفل، أو مثل الهريسة التونسية التي أدمنها، سيرى كلّ شيء حساء فائرا ودجاجا مشويا وخبزا يوزع رائحته الزكية على الصائمين، سيرى كلّ جماد وكلّ دابة مشاريع أطباق شهية ومغرية، حتى مشهد الماء يصبح جذابا، مختلفا، شيئا يتعذر القبض عليه بالكلمات الكسولة التي لا تعرف الدلالات.

لكنّ أولئك الملعونين، الصابرين والمرائين سيغضون الطرف متظاهرين بالشجاعة، بمقاومة النفس الأمارة بالسوء، كأنّهم زهّاد لا يعرفون الجوع، كأنهم ليسوا بشرا مثلنا نحن ضعاف النفوس، يخرجون إلى الشارع متثائبين ويتحدثون عن فضائله، راجين أن يكون أطول مما هو عليه، أن يكون العام كله عام صيام ليغفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر. من أين جاء هؤلاء؟

يعلم المتوكل على الله أنه عندما كان يستيقظ من نومه ويبصر النور يتسلل من النافذة نصف المفتوحة يلعن نهاره الذي لا يريد أن يمرّ كأيام العطلة، سريعة وسخية. كان يتكوّم في نصف عباءته الخليجية المتسخة ويعود إلى الفراش وهو يفكّر في يومه الذي لن ينقضي قبل

القضاء عليه: الأيام في رمضان تتمدد، تصبح شهورا، تغدو الساعة ضيفا لا نرغب فيه، كما لو أنه يريد الإقامة الأبدية، دون أن ينقشع عن مساحة الحسّ والرؤية، يا للحظ العاثر. لولا ألسنة الناس...؟؟؟

كما يتذكر المتوكل على الله أنه استيقظ عدة مرات نهارا، وفي كلّ مرة كانت أشعة الشمس تعيده إلى سريره الوثير، وكان مكيّف الهواء يغني له أغاني الرعاة فيشعر برغبة كبيرة في النوم إلى أن تهلّ لحظة الإفطار المجيدة. عشر دقائق أو خمسة، يغسل وجهه، يضع الطعام على الفرن، يصلي صلاة المغرب ويعود إلى الدنيا، يجلس إلى الطاولة التي جهزها كعرس الذئب ويضحك كثيرا لأنه انتصر على يومه العنيد الذي أقعده.

سيأكل ما لم تأكله القبيلة من سنين، يشرب القهوة ويدخن، يصلي العشاء ويذهب إلى المقهى ليلعب الورق مع أبناء الحارة. التدخين، التدخين، سيدخن كقطار، يصبح شاحنة قديمة تقطع الفيافي مبتهجة، وسيتحدث مع الجيران عن بركات شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن قبل قرون، سيكذبون كثيرا كديدنهم، يقولون ما لا يقوله الجوع والساعات التي تدبّ كالمقعدين، حدباء ومشلولة.

ما الذي حصل لك؟ سأله جاره مندهشا وهو ينظر إلى وجهه الذي ساخ بسبب الدود، ظنناك متّ فبلّغنا رجال الأمن ليبحثوا عنك في كلّ مكان، في القرية وفي السوق والوديان والشعاب المحيطة بالبلدة. الحمد لله على سلامتك. ما هذا الغياب الطويل؟ لم نرك

منذ حلول سيدنا رمضان المعظم، وهذا الدود الذي على جسدك المنهك؟ كأنّك لست أنت. هل متّ وبعثت من جديد؟ ما الذي جرى لك؟ اغسل نفسك. تطهر، أو اذهب إلى المستشفى. أنت لحاجة إلى فحص. ما الذي جرى لك؟

لا شيء، ردّ عليه المتوكل على الله دون أن يفهم شيئا من كلامه الغامض، ثم أضاف: نمت نصف نهار، لا أكثر، بضع ساعات، لكني ما زلت متعبا، لا أدري لماذا، جسدي مرهق، كم الساعة الآن؟ ما زلت أشعر بتعب شديد. خارت قواي بلا سبب. يجب أن أستريح قبل الإفطار لأستقبل يوما مباركا جديدا من أيام الصيام. أنت تعرف طقوس سيدنا رمضان الكريم: حساء وطبق وقهوة وحلويات وسجائر، نعمة ما بعدها نعمة.

السابعة مساء، تفصلنا نصف ساعة عن الأذان، ردّ عليه الجار وهو يتثاءب وقد غمرته سعادة كبيرة، ثم أضاف مندهشا: انقضت ثلاثة أيام من شهر رمضان ولم نرك لا في الجامع ولا في مقهى الإخوة، تخلفت عن صلاة الجماعة وصلاة التراويح، تصوّرنا أنك سافرت إلى البادية، أو أنّ مكروها حصل لك فقررنا كسر الباب للتأكد من الأمر. هل أنت حيّ أم ميت أم بين بين؟ عجب. الظاهر أنك من أهل الكهف. عجب.

لم يعلق المتوكل على الله على ما سمعه من جاره الذي كان يرتدي لحية طويلة يعبث بها النسيم. أما المعتصم بالله فكان فرحا لأنه لم

يستيقظ من مدة، هكذا تخلص من ثلاثة أيام من الجوع والعطش، من القلق وسيلان اللعاب أمام المحال التجارية التي تعرض المأكولات دون حياء. كان مكيف الهواء طيبا، وكانت الأيام قصيرة، تماما كما تمناها، مرّت كحلم خاطف، خفيفة ورشيقة. ناقص ثلاثة أيام، ناقص الخصام، ناقص العطش، ناقص الجوع، ناقص التعب، يا للانتصار الرهيب على الأيام.

- نلتقي بعد الإفطار. قال له الملتحي، أو قبله في الجامع، وهذا أفضل، نصلي المغرب معا لعلك تستيقظ قليلا.

وإذ غادره الجيران والشرطة مطمئنين راح يبحث في عجالة عن مبيد الحشرات ليتخلص منها. كانت الديدان تزحف تحت عباءته لتنتشر في الجسد المتعب من النوم اللذيذ، وكان يقول في سره متثائبا: سأستحم لاحقا، أجل، لاحقا، ليس الآن، الإفطار أولى، يجب أن آكل قليلا، هناك أولويات وجب احترامها، الإفطار عظمة لا تضاهى، كأنّه لحظة من لحظات الجنة: الحليب والتمر واللحم والفواكه والتبغ والحلوى التركية، ما أحلاها، الثلاجة مليئة بالخيرات، لا أدري إن كان الحساء جيدا، إن لم يفسد، سأرى، أضعه في الفرن بانتظار الأذان. يا للمتعة.

وقالت دودة أطلت عليه من أعلى الجبهة مندهشة مما سمعته: ظنناك توفيت فجئنا مسرعين لحضور الوليمة. الخطأ ليس خطأنا أيها الكائن العجيب، وأضافت بعد تفكير قصير: الأرض لا تحتاج إليك

لأنك مجرد حشو، مجرد بهيمة ضالة تشبه هؤلاء الذين من حولك في بلدة بني أنف الكلب: النوم العميق واللسان الطويل، هذا إرثكم، وتلك خصالكم مذ كنتم ها هنا.

سمعها المتوكل على الله ولم يعرها أيّ اهتمام، كان منشغلا بتسخين الحساء لئلا يتأخر، وعندما صدح أذان المغرب في أذنيه المقعرتين قفز إلى الطاولة، أكل وشرب ودخّن وتثاءب وفرك عينيه دون تقشف، ثم فكر في الدود، إلا أنه قرّر بعد تفكير عميق أن يستريح ولو قليلا قبل أن يستحمّ للتخلص من هذه الحشرات اللعينة التي تهدهد جلده. شعر بتعب العبيد فاتجه إلى سريره ليتمدد قليلا. كان الغطاء مليئا بالدود، نفضه بتثاقل وألقى بنفسه على السرير الوثير، وبعد لحظات قصيرة نام من جديد ولم يستيقظ إلى أن نبهته الفياقة في السحور.

كان يبدو فراشا في فراش مكيّف. هكذا رأى الدود جسده المسجى، ثمّ نظر إليه باستعلاء وخرج من البيت وهو يردد مغتاظا: الموت لا يحتاج إليك أيها الشيء لأنك ولدت ميتا، وميتا عشت تتظاهر والإيمان أنت مجرّد جثة، مجرد مسودة لا قيمة لها في جغرافية الخلق. تبّا لك من بهيمة ضالة في أرض الربّ.

جلالته لا يلعب النرد

اكتشف جلالته أن الحاشية خذلته عندما أبلغه كبير السحرة والمشعوذين وبعض المخبرين وماسحي الأحذية بأن الرعية هزلت وهوت إلى القاع كحجارة باردة لا تريم. كانت أعوام الريع تذرّ على المملكة الرهيبة أرزا وموزا وفراشات ونفطا وحلويات وذهبا وماء زلالا، ثمّ لا شيء. أفلست العير، اختلط الحابل بالنابل وذبل ما كان عليها من ورد. أصبحت الأرض جرداء وعمّ الطاعون. كان ذلك إيذانا بالموت الذي أصبح مقيّدا في الدفتر العائلي لكلّ ذي اثنتين وأربع.

قال جلالته في سرّه سأنتقم من كلّ أبناء الخنازير الذين هم من حولي. اكتشفت حقيقتهم بعد لأي. لن ينجوّ أحد من كيدي، وإنّ كيدي لعظيم. سيعرفون من أنا، الملك اليقظ الذي له آلاف العيون في الصحاري والبراري، في البرّ والبحر والجوّ والسماوات البعيدة التي لا أحد يدركها، الملك الذي يعلم ما بين أيديهم وما في بطونهم من سحت. أعرف أنهم إخوة وأبناء عمومة وأبناء أخوال وعمّات وأصهار

وحفدة وأبناء القبيلة، قبيلتي اللعينة التي استقدمتها خدمة للعرف، لكنهم قردة، كلهم متشابهون، دون استثناء. سيرون، سأفضحهم أمام حضرته وألحق بهم ذلّ الخليقة، أذلّهم لأتطهر من الأخطاء، من الفساد. أصبحت على حافة القبر، وعليّ أن أحج بطريقتي، أغسل عظامي من طبقات الحماقة، حماقاتي وطيشهم.

فكّر جلالته أربعين سنة في طريقة الانتقام من العائلة الكبيرة التي تزاحمت على الكراسي الفاخرة ولم تنهض من شدة البطنة، وإذ نظر إلى هيئته في المرآة لاحظ أنه حطام لا تنقصه سوى حفرة تليق بمقامه ومكارم أخلاقه. لم يتأثر لمظهره الخرب. وبعد سنة أخرى استدعى الوزراء إلى اجتماع طارئ لتقييم الوضع في عام أكحل. كان أصغرهم قد تجاوز سنّ التسعين بسبع سنين وسبع دقائق، ولم ينس جلالته تكليف المستشارين بتوجيه دعوة خاصة إلى السيد المحترم ليبث في النزاعات العالقة من سبعين سنة وسبعة أيام ميلادية.

حضروا كلهم متأخرين عن الموعد بسبع ساعات وسبع دقائق وسبعة أجزاء بالمائة. سبقتهم إلى القاعة بطونهم المتدلية التي كانت تشبه رزما من القش. الوحيد الذي التحق قبل الوقت هو السيد المحترم الذي تلقى الدعوة وفي نفسه أسئلة لا حصر لها. نظر إلى القاعة مندهشا من أثاثها البراق، ثمّ جلس على كرسي فاخر دون أن ينبس. كانت عيناه موزعتين ما بين السقف المزهوّ بالمنمنمات والطاولة الزجاجية والثريات الكبيرة المتلألئة وحجارة الحيطان التي

جيء بها من الأمصار النائية، وكان يردد في سرّه مغتاظا: ما علاقتي بهذا المقام الذي لا يناسب وضعي ككائن محترم له نواميسه؟ لم أفهم سرّ الدعوة التي أربكتني. لا بدّ أنها حيلة، فخّ ما وجب تفاديه. جلالته لا يلعب النرد مع الصغار. لا ثقة فيه. قد يصبح جزارا محترفا عندما يصاب بإحباط، وما أكثر هذه الفترات التي يصاب فيها بنوبات غامضة.

ـ أيتها الحاشية الكريهة كالبيض الفاسد وذباب المناقع. أيها الوزراء والمستشارون الملعونون، خاطبهم الملك بغضب لا مثيل له، دون مقدمات، كما جرت العادة في الاجتماعات العائلية، ثم أردف بصوت وهن مبحوح: لا أهلا ولا سهلا بكم في مجلس النفايات هذا الذي أصبحتم جزءا منه. التصقتم كالقراد ولم تستحوا. بلغني أنكم عثتم فيها فسادا وأكلتم كلّ ما في المملكة الرهيبة من قمح ونفط وكرز وتراب. قضيتم على الحلال والحرام كما يفعل الجراد. قولوا لي. من أنتم أيها الفحم البارد؟ يا معرّة الناس ومخلفات الشيطان، هل فعلتم كلّ تلك الكبائر ثمّ قدمتم لي تقارير على مقاسكم؟ كما تريدها جيوبكم؟ لعنة الله على اللصوص.

استمعوا إلى جلالته بانتباه شديد اللهجة وراحوا يتثاءبون ويصفقون بانتظار ما سيقوله وما سيقرّره في حقهم. كانوا يقولون إن الملك سخيّ، وسيبقى طيبا ورحيما وابن قبيلتنا وعائلتنا مهما أسأنا إليه أو كذبنا عليه نحن المريدين. لكنهم لم يفهموا سرّ دعوة السيد المحترم

إلى اجتماع لا يعنيه، لا هو ولا سلالته الذليلة، وكان السيد المحترم يتساءل بدوره عن سرّ دعوته لحضور اجتماع يخصّ علية القوم وسادة المملكة الرهيبة التي تتمرغ في الوحل معجبة بأمجادها التي من غبار ورماد.

جاءتني معلومات مؤكدة تقول إنكم أتيتم على الشجر والحجر وكذبتم عليّ بتقاريركم وإذاعاتكم وشاشاتكم ونشرات أخباركم، ظننتم أني شخت وفقدت الذاكرة، أضاف جلالته وقد جحظت عيناه الضائعتان في الجبهة، كنتم أسوأ حاشية أخرجت للناس أيها اللصوص المارقون الدجالون والخونة.

لكننا وقفنا معك في السراء والضراء، اعترض وزير المعرفة والصيد والزلازل والباذنجان والثوم وأقلام الرصاص، وأضاف وسط سيل من السعال المقفّى: فعلنا ذلك في الليل والنهار، في المرتفعات وفي المنحدرات، في الحرّ والقرّ، في العسر واليسر، في السرّ والجهر، في رمضان وفي الإفطار، وفي...

اسكت أيها الجرذ. نهره جلالته مستاء، ظننت أنّ خالتي مسعودة أنجبت رجلا صالحا لا يأكل حتى يجوع، وإذا أكل لا يشبع. أنت أكثرهم لؤما يا كيس النفاية. بلغني أنك استحوذت على أرزاق اليتامى وشرّدتهم إلى ما وراء البحر في قوارب متهالكة لتأكلهم الحيتان مرتاحة. اللعنة عليك أيها الدجال، ما أوسخك من عبد، وما أتعسك من حيوان موبوء.

لم يعلق وزير المعرفة والصيد والزلازل والباذنجان والثوم وأقلام الرصاص، ابن خالته مسعودة، طأطأ رأسه واختبأ تحت الطاولة الفخمة حتى لا يرى ولا يسمع ما يقال. كان جلالته يرغي ويزبد. ربما اكتشف سرّ المجاعة، أو أدرك أسرار الانهيار الذي شهدته المملكة المتعالية التي أصبحت عارا، وأضحوكة. سكت لحظة ثمّ قال للآخر بعد أن عطس بالعامية الفصحى:

وأنت؟ أجل أنت. تبدو لي مثل والدك، زوج خالتي أمّ السعد، نسيت وظيفتك، ذكّرني. تقول وزير الملح والنفط والقهوة والبرتقال والورق والأنهار والخشب والفحم؟ بالكاد خلقت لك وظيفة من العدم، وها أنت تخونني مثل يهوذا. من شابه أباه فما ظلم. انهض، يداك خلف ظهرك. اللعنة عليك أيها اللص. أكلت لحم الحيوان والإنسان ولم تشبع أيها السخيف، أيها الوحش القذر الذي لا يفكر سوى بالأمعاء.

كان جلالته محموما عندما أراد وزير الأكسجين وثاني أكسيد الكربون التدخل بكلمة قصيرة مفادها أنه بريء من الحكومة والشعب والأرهاط واللصوص، وقبل أن يكمل جملته كمّمه صاحب الجلالة وركله مرتين، وعلّق مشمئزا: كنت اعتبرتك أخي وابن أمي، لكنك خذلتني وابتلعت سبع مدن وحقلا من النفط الخام أيها اللعين. لم تنجب المرحومة إنسانا كالناس، بل كائنا لا قناعة له. احلف بأنك لم تفعل هذه الأفاعيل ولم تقل الأباطيل.

توالى الوزراء تباعا على منصة الاعتراف متكئين على عصيهم الفضية دون أن ينبسوا. كان كل منهم واقفا بانضباط، يداه خلف ظهره ووجهه إلى الحائط، وسرعان ما أمر كلا منهم برفع رجله اليسرى عقابا له. الوحيد الذي نجا هو وزير الكمّون لأنه ووريّ التراب قبل سنة ولم يحضر اجتماع جلالته. كان مدفونا في مقبرة قريبة، لكنه كان خائفا من شيء ما. كان يفكر في المعاول التي ستنبش ضريحه غدا لأنه ابن حرام مثلهم، كذلك فكر بخجل مرير.

أمّا السيد المحترم فلم يعلق على ما رآه وسمعه طوال الجلسة. ظل في مكانه ينظر تارة إلى الثريات وتارة إلى المجتمعين الذين بدوا منزعجين من جلالته. لم يستسيغوا إذلالهم أمام مدعوّ لا يعرفونه. بدا لهم أنه تجاوز الحدّ وطغى كما كان السلاطين في العهود البائدة، وإذ استرسل في توبيخهم نهض السيد المحترم من مكانه، نفض الغبار العالق بجلده، سوّى بردعته، نهق نهيقا مؤلما وخرج من قاعة الاجتماعات غير مبال بالصخب المتزايد.

وإذ أوقفه الحاجب أمام باب القصر الشاهق وسأله عن سبب خروجه من الاجتماع قبل الوقت، أجابه الحمار بأدب: أنا ذاهب إلى العمل، أمّا هؤلاء فلا شغل له. لا أريد أن يضيع وقتي في الاستماع إلى البراميل. يبدو لي أنّ لصاحب الجلالة والحاشية مشاكل عائلية كبيرة لا دخل لي فيها كشخص نظيف له كرامته وعفّته. ليذهبوا إلى جهنم ويخلدوا فيها إلى أبد الآبدين.

آمين. آمين. آمين. ردد الحاجب بصوت خفيض وهو يلتفت يمنة ويسرة، وأضافت الأرض المنهوبة: إلى الجحيم أنتم وذريتكم يا عار الخليقة.

سوء تقدير

نزل عليه الخبر كالغيث وموسيقى الزنج القدامى. لم يصدق ما قاله الرسول الذي جاءه صباحا بالتعيين الغريب الذي لم يحلم به من قبل. كان يرعى الماعز والخرفان والبقرة الصفراء والنادر الأخضر الناعم ويحضّر نايه ليوم بهيج عندما رآه قادما من جهة الرابية حيث الصفصافة وشجرة التين الميمونة. سلّم عليه وسأله عمّا إذا كان بخير في تلك الجغرافيا التي لم يزرها أحد مذ رفعت البلدة راية الاستقلال وانخرطت في الكذب، دون أن تتوقف يوما واحدا.

قال له عبد الخالق إنه في نعمة كبيرة مع الطير والحيوان، التراب والهواء والغابة والشلالات وقلة ما في اليد وكثرة ما في القلب، لكنه يحسّ بأن القلّة أتلفت عظامه ولم يعد سعيدا كما كان من سنين. بلغ الخمسين ولم يعرف المدرسة والمدن المضيئة التي حكى عنها بشر غرباء زاروا الجبل سياحا. لم يلتق بالعيد ولم يبن بيتا يؤويه كالناس الذين كانوا محظوظين. قضى حياته راعيا يجوب التلال والوديان

والغابات والمنحدرات بحثا عن المراعي، وكان الكلأ ينأى يوما بعد يوم، في حين ظلت حياته تركض باتجاه الموت.

ستعرف المدن والأرصفة والأضواء والأموال ولن تحتاج إلى هذه العصا الطويلة. قال له المهدي وهو يلوّح بالقرار الذي اتخذه المجلس الشعبي البلدي في اجتماع مصيري، ثمّ أضاف: لقد عيّنوك حارسا للمرمى، وهذا شرف لك ولنا. أنت محظوظ لأنك تدرّبت على القفز في الشعاب والوديان، نصبت الفخاخ واصطدت الوعول والجراد والذئاب ولم تفلت منك الذبابة. أنت أولى منهم ومن غيرهم بهذا العمل الذي ستتقنه كما أتقنت الوثب على الصخور مثل عفريت مراهق يرتدي برنسا باليّا.

نظر إليه عبد الخالق ويداه في جيبي سرواله العربي الرثّ. لم يجبه، ولم يفهم شيئا ممّا يحدث وما يقال، وإذ مرّت قربه عنزة قال لها مازحا كعادته: وجدت عملا أيتها المشاغبة، لن أحرسك بعد اليوم، ولن أصرخ في وجهك عندما تعتدين على شجر الناس وخضرواتهم، سترتاحين من وجهي القديم ومن أوجاع الناي الحزين الذي لم يتوقف عن النواح منذ الطفولة البعيدة. انتهى كلّ شيء، وجدت عملا أفضل. سأذهب إلى المدينة لأرى الناس الحقيقيين الذين يشبهون البشر. أولئك الذين لهم هواتف وسكنات لائقة وسراويل أوروبية.

سوّى شاشه الرمادي محاولا ترتيب أفكاره المنفوشة. لا شيء يهدد القطيع، سآخذه إلى وادي شتّيت قبل منتصف النهار، أسبح قليلا

في الغدير الزرقاء كما فعل أجدادي، أجني بعض الريحان من الغابة المجاورة وأعود لأستعد للسفر الغامض. ما معنى حارس المرمى هذا؟ هل هو عمل مهمّ حقا؟ أم سيحصل لي كما حصل لذلك الغبي؟ قال لك راح لبلاد النساء وتزوج بعجوز.

صنع عصا جديدة من شجر الزان واستبدل الشاش بالعمامة البيضاء الذاهبة نحو الصفرة، حمل بندقية جده والخنجر الذي صنعه له الحداد قبل أعوام ويمّم شطر البلدة البعيدة التي كانت مصدر حكايات سحرية. سيصعد الهضاب ويقطع الممرات التي تصل الضيعة بالجبل الشاهق، ثمّ ينزل المنحدرات الواحد تلو الآخر. سيقضي ساعات في الطريق، يشرب اللبن ويأكل الخبز اليابس الذي طبخته العمّة قبل يومين، يستظل بأشجار البلوط، سيصل قبل العصر متعبا ليلتحق بالعمل في الوقت المناسب، لا قبل ولا بعد، قد يهرب هذا العمل كما هرب العمر مدرارا. من يدري؟ لا ثقة في الدنيا.

نظر إليه القرويون مندهشين. كانوا جالسين في المقهى المركزي يفكرون في طبقة الأوزون ومصير الجليد، وكانوا يقهقهون بلا سب. لم يولهم عبد الخالق أهمية، رمقهم بطرف العين فرآهم يلوكون اللبان منتشين، يدخنون ويثرثرون ويتأملون هيئته باهتمام. بدا لهم أنه من أزمنة سحيقة، من ذلك العصر القديم الذي تحدثت عنه الجدات في حكايات الغول. أمّا هو فأشفق عليهم وعلى هيئتهم الأوربية الغريبة،

بدوا له مساكين وتعساء. لم يفهم ماذا يفعلون، ولا من أين يعيشون.

لكنه لم يحزن. مشى متلعثم الخطى مبعثر العينين بحثا عن مكان العمل الذي سيكون فيه حارسا كبيرا للمرمى. لن تغمض له عين طوال الليل. كان متكئا على عصاه التي لم تفارقه مذ عرف نفسه في الكوخ، ثم في الغابة، وكانت البندقية القديمة تتدلىّ بلا انتظام، مشدودة إلى الكتف بحزام من الجلد المدبوغ، وكانت الشوارع والمحال التجارية تحذق فيه باحتقار، كأنما اعتدى على أضوائها وإسفلتها بحذائه اليابس، هي التي ألفت النعال الناعمة التي تأتي من الميناء في علب من الحرير.

أنت. توقف. أمره أحدهم بصوت مرتفع.

نظر إلى الرجل الذي يلبس بزة رسمية خضراء ولم ينبس، وكان يردد في سره مستاء: يبدو أن هؤلاء الناس لم يتعلموا كيف يلقون التحية على ضيف ربّي. ليسوا مثل الرعاة وسكان ضيعتنا التي ربّاها الجوع، الفقر والمروءة، سكان ضيعتنا ألطف، يبدون للزائر سمرا وقذرين جدا، لكنهم طيبون كما الساقية. ينهضون باكرا ويقولون لي صباح الخير يا وجه الخير. هل سأحنّ إليهم وإلى البراري والوحدة؟ وكم من يوم سأقضي هنا حارسا للمرمى؟ لكني لا أفهم معنى المرمى.

اقترب منه الدركي وسأله عن سبب حمل البندقية والخنجر دون ترخيص من الدولة المستقلة منذ أعوام، الأسلحة ممنوعة منعا باتّا

منذ الفتنة الأخيرة، ولا يحق لأي مواطن حملها، مهما كانت الأعذار. السلاح للعسكر والشرطة، وليس للرعاة.

لم يهضم السؤال، ولم يفهم معنى الدولة، كما لم يفهم السلاح للعسكر. بدا له الرجل معتوها لا يعرف ما يقوله. من عادة عبد الخالق الذهاب إلى الجبل ليحرس الماعز والخرفان، وكان يصطاد الوعول ويتهدد الذئب والضبع دون أن يوقفه أحد، إلاّ أنه سرعان ما تذكر أنه لا يوجد أيّ أحد في جبل صندوح الشاهق المطلّ على أضواء القرية والمدينة المحتفلة بنفسها، لذلك لم يُسأل عن الخنجر والبندقية، كما لم يسأل عن لباسه وحالته، وما سخر منه أحد مذ عرف الجبل.

أخرج عبد الخالق من جيب معطفه الشتوي الأشهب رزمة من الأوراق التي كانت مطوية، ومكوية بإحكام. بحث عن الظرف الجديد الذي جاء به الرسول وسلّمه للرجل ذي البزة الرسمية. كان القرار واضحا لا رماد عليه ولا غبار، وتحته التاريخ وتوقيع رئيس المجلس الشعبي البلدي:» يعيّن السيد عبد الخالق، المولود في خمسة أيلول ألف وتسعمائة واثنان وستون بوادي الظلام، حارسا لمرمى فريق كرة القدم بداية من استلامه هذا القرار التاريخي الهام«.

ـ فهمت. علّق الدركي متأثرا، ومع ذلك يجب أن أحقق معك فورا بسبب حمل سلاح غير مرخص به. القانون هو القانون. القانون فوق التعساء وتحت السلاطين. ممنوع حمل الأسلحة، إن لم أقدم تقريرا عنك سيقدمون عني تقارير كثيرة، سيكتبون مجلدات ضدّي. أيها

السيد عبد الخالق المسكين، أيها التعيس، الناس لا يحرسون المرمى بالخنجر وبندقية الصيد. كرة القدم هذه لعبة رابحة، وحارس المرمى لا يحرس سوى أمتار، فارغ اليدين سوى من قفازات، فارغ الرأس، لا حاجة لك بالسلاح، بالعقل، بالتفكير. ثمّ أضاف بصوت خافت: يحرسون المرمى ولا يحرسون البلدية من اللصوص الذين تكاثروا كالبق، اللصوص وقطاع الطرق. ومع ذلك، عليّ أن أحقق مع هذا الميت قبل الأوان. ما أتعسه من حارس مرمى جديد لا يعرف القانون.

عبد البطن العظيم

بعد جهد جهيد عثر عليها في حلم محلي كاد أن يأتي عليه. أعجبه الحلّ كما لم يعجبه بقاؤه بلا عمل طوال سنين من البطالة الجميلة. كان يرغب في شيء آخر أهمّ من الراتب النحيل، في مهنة شريفة تذرّ عليه شققا وعلاقات ومراتب وقطعا أرضية تجعله كبيرا ومطمئنا مثلهم، ولم يكن في المملكة مال كافٍ. نفد نفطها وذهبها وذبلت أرضها وجفّت المراعي المهملة، ومع الوقت قالت المملكة لا حلّ لنا اليوم سوى الجوع أيها المواطن الطيب. شربنا النفط كلّه ولم يعد لدينا مال لنشتري لك الملح والقمح والشعير والنخالة. تتقشف.

تقشف الناس ولم يعودوا يتنفسون كثيرا احتراما لملك الجمهورية الفاضلة، نسوا الحليب والجبن والخبز البلدي والموز الذي كانت تحمله البواخر تباعا، ولم يعودوا يضحكون سوى مرّة واحدة في نهاية الأسبوع حتى لا ينسوا شكل الضحك وفوائده في الحفاظ على الزمرة الدموية، وكانوا يرقصون قليلا في عيد ميلاد فخامته، صاحب الجلالة

والرفعة قدّس الله سره، كما ظلوا ينادونه مطأطئي الرؤوس عن آخرها.

تقشف فخامته ولازمه حزن كاد أن يجعله مسمارا. حوّل إلى القصر الفقير كلّ السفن التي كانت ترسو في الميناء من أجل إطعام الحاشية التي لا مال لها ولا جاه ولا علاقات ولا سند. كان الوزراء المعدمون ينامون في الأرصفة الوسخة بثيابهم الرثة، يشحذون في الشوارع القذرة، يمثلون الأمة في المؤتمرات العالمية بشعر أشعث أغبر كشعر الصبّار، يقتاتون من النفايات وصدقات الرعية الطيبة التي قرّرت عدم استعمال الكهرباء والبنزين لتوفير المال للقصر الفقير وقُصّره الميامين. انتهى زمان الخبز الأبيض وقطع الغيار. توقفوا. قالت النفوس القانعة، نحن في كفّ عفريت أحمر. لا للتبذير. لا للجبن والجزر والبطاطس والسراويل التي لا معنى لها في زمان النساء.

باع الناس المخلصون لفخامته كلّ السيارات والحافلات والدراجات النارية وألعاب الأطفال واشتروا حميرا وبغالا، أمّا المترفون فقد استقدموا عربات قديمة تجرّها أحصنة هزيلة لا نخالة لها ولا ماء، وهناك من اشتروا جِمالا من الصحراء. في حين أفتى الإمام بتحريم عربات الأمم الكافرة التي أفسدت الدين والملّة وأصبحت مصيبة وعلة. ألقى خطبة طويلة في مسجد الساحة الكرى قال فيها للمؤمنين والمؤمنات والكفار والكافرات الفاجرات إنّ ركوب السيارة بدعة ومنكر، واعدا كلّ المتقشفين والمتقشفات بجنة تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها قريبا من فخامته، وختمها باكتشاف مثير

أدهش الناس الذين بهتوا: كلّ بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

تقشفت العصافير والحشرات والسلاحف والنباتات، ولم يعد أحد يبحث عن التبغ والسردين المعلّب واللباس والحلاّق، باستثناء السيد عبد البطن العظيم وأتباعه الطيبين. مكث في بيته شهورا إلى أن عال صبره. قال سأبحث كثيرا إلى أن أجدها، ثمّ اكتشفها بعد لأيٍ: لم تنفع كلّ صلوات الاستسقاء، الظاهر أن الله لا يهتمّ بشأننا. سأقضي على الجفاف الذي جعل التراب يبابا، ستخضرّ الأرض العطشى وتمدّنا بالشعير والنفط والغاز والكبريت والأناشيد السخية التي كانت تجيء مرفرفة مع الربيع.

سأكتب له رسالة أشرح له فيها اكتشافي الجليل الذي لم يفكر فيه أحد. أجل، وزير السعادة العارمة ابن خالتي الذي رضع حليب والدتي، وحليب الذئبة في الغابة. لن يكذّبني لأنه من دمي، من قبيلتي التي لا تتنكر لأبنائها. سيخصص لي ميزانية للبحث العلمي، وهكذا أخلّص الأمة من القيظ والجوع والرمد والحمّى والألم، ثمّ أنقب عن النفط حيث كان، هناك أولويات وجب الاهتمام بها قبل الغاز، سأكتب له رسالة تاريخية تعجب الوزراء، أبناء القبيلة والعمومة. لن يعترض أحد. زيتنا في دقيقنا، كما يقولون.

يا للعبقرية. قال وزير السعادة العارمة مندهشا بعد قراءة رسالة السيد عبد البطن العظيم، هذا اكتشاف ربّاني لم تشهده البلدة منذ قرون، بل منذ الغمر، بُشراك أيتها الأرض الحزينة، ستنتهي الكآبة

قريبا، بعد عشر سنين أو خمسين سيخلص ابن خالتي المواطنين المحزونين من الفاقة وحكّ الشعر للتخلص من القمل. هذا الولد هبة من الخالق لشرّ ما خلق. وداعا أيها التقشف.

بعد أيام وصلته الأموال منسكبة كسواقي القرويين. اشترى عبد البطن العظيم ضيعة كبيرة وجرّارات وسيارات وخيولا وشاحنات وقطيعا من الدواب وقبّعات وعصا ورشّاشا وأقفاصا لتربية قطعان من السحاب الأجنبي، ووظف عبيدا وثكالى. لكنّه فكّر وقال بعد أن أغرم بالعملة الصعبة: لن يكفي هذا، السحب مهمة، لكنها لا تفي بالغرض. سأحتاج إلى رياح عاتية لتلقيح السحاب. من أين آتي بها؟ من فرنسا أم من الصين؟ لا. ليس الآن. لم يحن الوقت بعد. سيتصرف ابن خالتي، وزير السعادة الجارفة، كالحاشية كلّها، أبناء الأخوال والجيران، سيتفهمون، وسيساعدونني من أجل المملكة الجمهورية، من أجل الراية التي سأرفعها عاليا.

وقال الناس في أعماقهم مندهشين مما رأوه في ضيعة كبيرة: السيد عبد البطن العظيم فتح مخبرا لتربية لا نعرف ماذا. أو لزرع لا ندري ماذا؟ ما عساه يفعل بتلك الأراضي، بتلك النقود الكافية لبناء بلد؟ يقولون إنه سيغرس ريحا أجنبية ثلاثية الأبعاد، من أين جاء بالبذور والمتاع والعربات ونحن معدمون، لا قوت لنا ولا دواء ولا ابتسامات ولا حبة قمح نسد بها الرمق، لا نخالة ولا ما تيسر من العشب الندي؟ هل نحن أغبياء كالأحذية؟ ماذا يحدث هنا؟ الرجل

لص لا يؤتمن جانبه، مقامر وسكير يعرفه القاصي والداني. ماذا يفعل هنا؟

موتوا بغيظكم، كان يردّ عليهم في سرّه مقهقها. كان الأجداد محقين عندما قالوا «أنا بالعسل إلى أفواههم وهم بالأشواك إلى عيني». حكمة في محلّها. لا أدري إن كانت الأقفاص كافية لتخصيب السحاب وتربيته إلى أن يكبر ويصبح مفيدا للرعية الجائعة. سأستبدل العصا بأخرى، يجب أن تكون أكبر لأسوق بها الريح إلى الأقفاص السعيدة. سأخبره. أجل. سأخبره اليوم. لن يرفض. يجب توسيع المشروع: سحب وريح وضباب ومطر للجميع، للناس والحشرات، للبهائم والنبتة.

لكنّ ابن خالته، وزير السعادة، تعب من إمضاء الصكوك البريدية، كما تعب عمّال البنوك من عدّ النقود أو صبّها في حسابه الشخصي، فاقترح عليه أن يمنحه مفاتيح البنك الصغير، وكان يقول للمقرّبين والمستشارين الذين بعدد الرعية: العلماء الكبار محلّ ثقة رئيس مملكة الجمهورية الفاضلة، أو ملك ملوك الجمهورية، الأمر سيّان. لا يمكن إهمال النية الحسنة في ظل سياسة الحكم الراشد. يجب تشجيع الشباب وترشيد النفقات، هؤلاء هم نورنا ومستقبلنا.

كذلك ظل يردد في اجتماعاته، في مراسلاته الخاصة وفي أحلامه وكوابيسه التي كانت على المقاس. كانت أحلام يقظة مضنية وكوابيس لا دخل لها في شؤونه وشؤون ابن خالته، العالم الذي سيجعل الأرض

ساحرة. وانتظرت الرعية نتائج الاكتشاف الذي سيخلّصها من التقشف بعد أن التصق الجلد بالعظم وتصلب. أمّا الوزراء فأصبحوا يجتمعون حفاة ويمثلون المملكة عراة، وكان الأجانب يشفقون عليهم فيقدمون لهم سجائر مجانا، كما كانوا يمنحونهم قليلا من اللوبيا والفاصوليا والهريسة والحلويات المشرقية ليتذوقوها، وكانوا يبكون دون تقشف، ومع الوقت أصبحت هيئاتهم مؤسفة. أمست هياكل عظمية بربطات عنق نافرة، لكنهم بقوا وزراء رغم الجوع الشديد الذي قصم ظهورهم.

......

بعد سنين عجاف سقط المطر مدرارا، فاضت الوديان وجرف السيل البيوت الطينية فغرقت في الأوحال. كان المشهد حزينا عندما خرج على الناس وزير السعادة وابن خالته العالم عبد البطن العظيم. بسمل الوزير الجائع وحمدل وقال مخاطبا الدهماء بلهجة صارمة بلغت أعنة السماء: جلالته الذي يحبكم حبا جمّا يقرئكم السلام من خلف ستار ويقول لكم: فُرجت أيها الناس، يا جياع الدنيا، ها قد عاد الماء بفضل جهودنا الحثيثة، وبفضل جهود العالم عبد البطن العظيم الذي ربّى السحب في الأقفاص وجلب ريحا لتلقيحها، وهاهي تمنحكم غيثا مدرارا. يجب تشجيع هذه الكفاءات وتوفير لها ما تحتاج إليه من مال ومتاع لإنقاذكم من الرمادة.

وقال عبد البطن العظيم معلقا على الانجاز الذي كتبت عنه الصحف وأثنت عليه الإذاعات والشاشات وحزب فخامة الملك

الأعظم: أيها المواطنون والمواطنات، الآن وقد سقط المطر سأبحث لكم عن النفط في الجوّ، عن البطاطس والدقيق والقماش والعدس والنظارات الشمسية، وهذا يتطلب وقتا وأموالا. اصبروا وصابروا ورابطوا وتقشفوا أيها الإخوة المكافحون من أجل البقاء. لا شيء يأتي مجانا، جنّتكم وشيكة، وستضحكون على من ضحك عليكم من الأعداء والمشركين والمناوئين والمشككين في برنامج فخامته.

صفقت الرعية ودعت بارئها بأن يسلخ من أعمارها أعواما ويضخها في عمر السيد ملك الجمهورية كي يعمّر أبد الدهر، وعلق شيخ طاعن في القبر كان متكئا على شجرة وفي يده غصن صغير ومسبحة: لا يلد الخنزير سوى خنزير مثله. كذلك ورد في سفر الاستبداد.

في عيونهم عمش

عاد عبد الله البري إلى المدينة مبتهجا كالتوت البري، وكالأرض التي أنجبته قبل سنين، متربا ومضيئا، ثم عرف مدن العار فمسخته. بحث عن مكان هادئ، ورأى أن يرتاح تحت شجرة التوت المحاذية للمقهى المركزي، طلب شايا صحراويا احتفاء بنفسه التي تعبت من الدوران بلا سبب وفكر في الأيدي المكتوفة منذ عقود.

اعتكف أياما في الحقل ولم يخرج درءا للألسن، للكسل الأعظم الذي عشش في الأيدي، غرس التين والزيتون وسقى الخضروات والأشجار الكريمة التي حدثته عن الغيمة والماء، عن الجهد وعرق الإنسان، وكان يقول في سره وهو يسير في الحقل منتشيا كلوحة زيتية: شجرة الرمان تبتسم لي كالجدات الراحلات، وكالراهبات اللائي توحدن بحثا عن الله. كم هي بهية هذه المخلوقة، إنها أفضل من هؤلاء، بمن فيهم كبيرهم الذي علّمهم التثاؤب الجدلي، قبحكم الله من خلائق لا تنفع ولا تشبع.

وضع رجله اليمنى على اليسرى وأخرج سيجارة ليستمتع بجهده، دون أن يبصر أحدا ممن كانوا يهيمون على وجوههم بلا سبب. أستحقّها، ردد في سرّه مغتبطا، اجتهدت أكثر من أولئك الذين ينتفخون دون كلل، ينهضون باكرا ليتحدثوا، ليبربروا، ليجلسوا تحت شجرة التوت متهدلين ولا يتوقفون عن الثرثرة، لكنهم لا يقوون على الحركة.

عادة ما أشبههم بعلب قصديرية فارغة، صخب طوال اليوم، وفي المساء يعودون إلى بيوتهم منهكين كأبطال الحروب الوهمية التي لن تقع أبدا، لا شيء، مجرد غبار يتحدث عن غبار. من منهم يطعم نملة واحدة؟من منهم يطعم نفسه؟ اللسان أطول من اليد، شتلة فاسدة لا تصلح حتى للسماد. هؤلاء مثل الجراد وداء الكلب، يعلفون وينبحون طوال حياتهم، ثمّ ينامون، معجبين بأنفسهم المهزومة التي ربتها مدن الدياثة العارمة.

أهلا بك. غبت شهرا. هل كنت في الحج أم في مغارة أيها النبي الأعزل الذي لا أتباع له ولا رسالة؟ فاجأه عمار الدجال وهو يربت على كتفه مستهزئا، كمن يرغب في إثارته ليعرف أين اختفى أياما ولم يظهر في الحارة التي أنجبت أبطالا من الغبار.

نظر إليه عبد الله البري غير مبال بسؤاله المستفز، مرّر السيجارة بين أصابعه وحمل كأس الشاي مستمتعا بمذاقه، قبل أن يردّ باستهزاء مماثل، دون أن ينظر إليه:

لا هذا ولا ذاك، أجابه محني الرأس، ثمّ أضاف وهو يتأمل المسار الحلقي للدخان المتصاعد نحو الغياب: كنت في القرية حيث البشر الحقيقيون الذين يرافقون الأرض مسالمين مطمئنين، كأنهم ملائكة من ضوء الخالق، أمّا أنتم الملعونون فأفسدتكم المدن التي لا معنى لها. غرست أشجارا هناك، رافقت تراب الطفولة، الباذنجان والثوم والبصل والريحان والنبتة البرية. لا شغل لي هنا في المدينة، كرهتها وكرهت كثيرا، وعفت سكنتها جملة وتفصيلا.

ألم يقل رسولكم إنّ العمل عبادة؟ أنتم لا تعرفون سوى بعض قشور الأحاديث، بعض الآيات التي تناسبكم في صلواتكم الكسولة، تريدونها على مقاسكم،وأمّا الأفعال فلا تحبونها، تبدو لكم من الكبائر، ولهذا تأخرتم، لهذا السبب بقيتم في آخر الدنيا تلوكون اللبان، كما الجرذان في مجاري الصرف الصحي. أنتم أكبر عار في البرية، وأكبر لعنة في التاريخ. تنامون إلى أن تنتفخوا ثمّ تجلسون في المقاهي لترتاحوا من كثرة النوم. رائحتكم الكريهة تقتل الطائر والهواء.

قهقه عمار الدجال فأيقظ كل الأحجار والحشرات التي كانت غافية في مقامها العالي، ومن النفاية المجاورة للولاية والمسجد هرب فأر صغير كان متكئا على قطعة خبز رماها أحد المارة لاعنا صاحب محل الأكل السريع وذريته. كان خائفا من قهقهته المدوية.

ـ العمل عبادة؟ هل هذا صحيح؟ سأله عمار الدجال ساخرا، وأضاف ضاحكا وهو يمشط شعره إلى الأعلى ويشدّ على سرواله

المهدد بالسقوط: من قال هذا البهتان ومتى وأين ولماذا وكيف؟ هل جنّ هذا القائل أم ماذا حصل له؟ أمّا الكسل فنعمة لا مثيل لها في الحياة الدنيا. الكسل عمل لذيذ يستحق العناء، يستحق أن نرفع له القبعة احتراما لجلالته، لا شيء يسمو إلى مقامه العالي.

اسمع. لا وقت لي لأجيبك. هربت من المدينة اتقاء هذا الكلام الذي لا يعجبني، لا أحب سماع هذيانكم، هؤلاء هم أنتم، وهذه خصالكم الحميدة. تأكلون وتنامون كالبغال ولا تنتجون سوى الفرث، لا فرق بينكم وبين البهائم، البهائم أنفع منكم وأعقل، وأكثر بهاء.

اجتمع من حوله كلّ سكان الحارة وسألوه عن هذا الذي قال إن العمل عبادة دون أن يستحي من التاريخ والجغرافيا. كانوا ينظرون إليه مندهشين وفي أعينهم عمش كثير التصق بنظراتهم الفاحصة. لم يجبهم البتة. كان مطمئنا مع الشاي والرأس والسيجارة الناعمة، وفي البال ومضت فكرة أيقظته من غفوته: سأغرس كرزا كثيرا هذه السنة، الكرز يبتسم جيدا، كأنه لؤلؤة نادرة، سأغرس توتا في الضيعة وبعض السفرجل، ستزهو المساحة كلها وتشكرني على الهمّة، سأتجول هناك مثل أمير من الضوء. لا بدّ أنّ الأشجار تحبّ الغناء كثيرا لأنها طيبة، سيغني لها الكرز سيمفونيات عذبة لأنه بلبل بألف حنجرة سخية، الكرز مخلوق عجيب، يستيقظ باكرا ليضيء الضيعة. لا شيء أجمل من الشجرة والنبتة والوعل والماء، ما أجملها الكائنات

الصغيرة التي ترافقني هناك في القرية، وما أتعس هذه المقاهي. مقاهيهم العامرة بالرذيلة.

سمع الملك بالحادث فحزن كثيرا لما حصل في المدينة الآثمة. وفي اليوم الموالي خطب في الرعية التي لم تستيقظ من عصور. وقال بعد السلام والتحية: أيها الناس، الأحياء منكم والأموات. اسمعوا وعوا، للصلاة وقتها وللضحك وقته وللأخطاء وقتها وللراحة وقت وللكسل وقته. لكلّ شيء في الدنيا مقامه ومقداره. اسمعوا جيدا. سأقول لكم شيئا نافعا: الإنسان الكبير يعيل نفسه ولا يعتمد على غيره من الرجال. هذا الغير مهمّ عند الضرورة القصوى. يجب أن تتحركوا، أن تؤمّنوا غذاءكم، أن تكدوا وتتعبوا لتعيلوا أنفسكم، ألم يقل رسولكم إنّ الدين عبادة؟ أم نسيتم هذا وغرقتم في الكسل والنميمة؟

هلّل الحاضرون وصفقوا بالأرجل والأنياب والآذان والأيدي القطنية وهتفوا بحياة جلالته. كانوا يستمعون إليه منتبهين لما يقوله مستاء منهم،وكانوا يتثاءبون ويفركون عيونهم العمشاء بانتظار ما سيوفره لهم من طعام وشراب. سيسعدون بوعوده. لكنّ الملك الحزين لم يكن طيبا كالعادة، متسامحا وسخيا. أخرج من جيب سترته شكوى عبد الله البري وسأل الناس عابسا مستنكرا ما قاموا به من شرّ في حق رجل نافع:

أيها الناس والشياطين والأوباش والأوبئة، لماذا رشقتم أخاكم عبد الله البري بالشتائم والطين والطماطم والأحذية عندما قال لكم إن العمل عبادة؟ ولماذا فلقتم رأسه بالحجارة فكاد يغادر الدنيا؟ ألم يعجبكم كلامه؟ هل أنتم بشر أم بهائم؟ ألم يكن محقّافي ما قاله أيها الزنادقة؟ يا معرة الناس مذ خلقت الدنيا.

- يحيا الملك، المجد لجلالته، أنت لا تتكلم إلاّ بالحكمة، العمل عبادة عندما تأتي النصيحة منك يا مولانا، ولعنة عندما تأتي من الدهماء مثلنا ومثل عبد الله البري، جارنا البئيس الذي ما زال يؤمن بالخرافة. ثقتنا فيك مطلقة أيها المبجل، أنت أملنا الوحيد، المجرى والمرسى.

نظر إليهم الملك الحزين مستاء، مخذولا، ثمنزل من المنصة وهو يردد بصوت مرتفع لم يعهدوه من قبل: بئس هذه الأمة الكسولة، بئس هذا وذاك، ما أتعسني من حاكم، هؤلاء الأنجاس لا خير فيهم وفي ذريتهم، ينحنون لي كالفواصل بحثا عن سحت وفتات، عن نخالة ما، عن هبة أو عن تحية تأتي من فوق. كيف حكمتهم طوال هذه المدة ولم أسعر؟ هؤلاء مجرد بهائم في سوق كبيرة، أو في إسطبل لا حدّ له.

بحثوا عن الملك شهورا ليعيدوه إلى القصر العتيق، إلى أن وجدوه ذات ربيع في قرية نائية يغرس التين والزيتون بعيدا عن مدينة الديائة

وأهلها المعتوهين. كان يقتات على النباتات والخضروات والفواكه التي غرستها يداه الناسكتان، وازداد ألقا وفتوة بعد تخليه عن الرعية النائمة بالوراثة. شعر لأول مرة أنه ملك عادل له معنى في المجرّة. أمّا هم فقد ازدادوا كسلاوفقرا، لكنهم طوّروا صناعة النميمة المحكمة. قالوا سنصدّرها في سفن وبوارج حربية إلى الأمم الأخرى التي لا تعرف لذة الهمز واللمز والفقر والنوم ليلا نهارا، وسنستورد الموز والنظارات الشمسية والسراويل القصيرة لنبدوّ بشرا مهمين في القارة.

قلق وحزين يا جدّي

نصحه الناس بمراجعة الحكيم بعد فشل الأطباء في الكشف عن دائه الذي لازمه أعواما، قد يفيده كما أفاد القاصي والداني والقاضي والبغل والمعتوهين الذين أصيبوا بالتخمة. قيل له إنّ الحكيم تجربة عمر مجلل بالزهد وضوء الأكوان، بقناعة المتصوفين القدامى، نعمة لا تضاهى في القرية التي انحدرت إلى القاع مع المنحدرين، سيفحصه دون مقابل ويتحقق من جذور الوباء الذي جعله كئيبا لا يقوى على الأكل والنوم في مدن الأكل والنوم والقذارة.

وصل إليه باكرا في خلوته القصية ولم يصدق عينيه التائهتين، رأى الشيخ جالسا على حصير من الحلفاء أمام الكوخ في أسفل واد كبير لا زرع فيه، وكان يحمل بين يديه كتابا بنّيا ضخما ظهرت على غلافه حروف مذهبة لم يتبينها جيدا. اقترب منه بخطى نحيلة وسلم عليه بصوت متردد أجشّ، كأنما التقى بظلّ باهت وخاف من صمته الجليل الذي بدا هرَما من العلامات الغامضة.

التفت إليه الحكيم ببطء وردّ التحية بأحسن منها، ثم سرعان ما غرس عينيه الغائرتين في الصفحات دون أن ينبس بكلمة. ربما لم يتكلم منذ نزوله إلى أسفل الوادي حيث الغدير الزرقاء، كما يسميها القرويون الذين لم يعرفوا البحر. جاء الشيخ الجليل إلى مقامه غسقا ببعض الخبز والتمر والحليب والأدعية، ولم يكن بحاجة إلى ماء، تكفيه والحشائش والفواكه البرية والصمت والينابيع الصغيرة التي كانت تضيء الأرض الحزينة، تلك النعمة التي تخلى عنها الرعاع والتحقوا بمدن الدياثة ليتعلموا الاتكاء على الحيطان من الصباح إلى المساء، وهناك كتابه العجيب الذي رافقه عمرا.

- هل احتجت إلى شيء؟ سأله دون أن يرفع عينيه عن الكتاب القديم الذي بدا ممزقا كخرقة منسية في شرفات الدنيا.

نعم يا سيدي المبجل، أجابه عبد الله مطمئنا، ثم أردف بعد تردد: أتمنى أن لا أفسد عليك وحدتك الجميلة التي جعلتك تشبه الرهبان الذين قرأت عنهم كثيرا، أحببت هؤلاء وأشفقت عليهم وعلى وحدتهم المجللة بالأسئلة. قال لي السكان يا سيدي إنّ الحكيم هو الحلّ الوحيد لمشكلتك المزمنة، هو من يعرف مصدر الداء الذي لازمك، دون أن يعالجه الحكماء. الظاهر أنهم محقون في ما قالوه. اسمح لي أن أتطاول على وقارك بهذا الكلام الذي لا يعنيك. أعجبني جلوسك في هذه القفر المضيء، تشبه جدي في المعزولة، هناك حيث ولد وعاش ومات كالصوف، دون أن يجد المرض سبيلا إليه.

قلق وحزين يا جدّي

نصحه الناس بمراجعة الحكيم بعد فشل الأطباء في الكشف عن دائه الذي لازمه أعواما، قد يفيده كما أفاد القاصي والداني والقاضي والبغل والمعتوهين الذين أصيبوا بالتخمة. قيل له إنّ الحكيم تجربة عمر مجلل بالزهد وضوء الأكوان، بقناعة المتصوفين القدامى، نعمة لا تضاهى في القرية التي انحدرت إلى القاع مع المنحدرين، سيفحصه دون مقابل ويتحقق من جذور الوباء الذي جعله كئيبا لا يقوى على الأكل والنوم في مدن الأكل والنوم والقذارة.

وصل إليه باكرا في خلوته القصية ولم يصدق عينيه التائهتين، رأى الشيخ جالسا على حصير من الحلفاء أمام الكوخ في أسفل واد كبير لا زرع فيه، وكان يحمل بين يديه كتابا بنّيا ضخما ظهرت على غلافه حروف مذهبة لم يتبينها جيدا. اقترب منه بخطى نحيلة وسلم عليه بصوت متردد أجشّ، كأنما التقى بظلّ باهت وخاف من صمته الجليل الذي بدا هرَما من العلامات الغامضة.

التفت إليه الحكيم ببطء وردّ التحية بأحسن منها، ثم سرعان ما غرس عينيه الغائرتين في الصفحات دون أن ينبس بكلمة. ربما لم يتكلم منذ نزوله إلى أسفل الوادي حيث الغدير الزرقاء، كما يسميها القرويون الذين لم يعرفوا البحر. جاء الشيخ الجليل إلى مقامه غسقا ببعض الخبز والتمر والحليب والأدعية، ولم يكن بحاجة إلى ماء، تكفيه والحشائش والفواكه البرية والصمت والينابيع الصغيرة التي كانت تضيء الأرض الحزينة، تلك النعمة التي تخلى عنها الرعاع والتحقوا بمدن الدياثة ليتعلموا الاتكاء على الحيطان من الصباح إلى المساء، وهناك كتابه العجيب الذي رافقه عمرا.

ـ هل احتجت إلى شيء؟ سأله دون أن يرفع عينيه عن الكتاب القديم الذي بدا ممزقا كخرقة منسية في شرفات الدنيا.

نعم يا سيدي المبجل، أجابه عبد الله مطمئنا، ثم أردف بعد تردد: أتمنى أن لا أفسد عليك وحدتك الجميلة التي جعلتك تشبه الرهبان الذين قرأت عنهم كثيرا، أحببت هؤلاء وأشفقت عليهم وعلى وحدتهم المجللة بالأسئلة. قال لي السكان يا سيدي إنّ الحكيم هو الحلّ الوحيد لمشكلتك المزمنة، هو من يعرف مصدر الداء الذي لازمك، دون أن يعالجه الحكماء. الظاهر أنهم محقون في ما قالوه. اسمح لي أن أتطاول على وقارك بهذا الكلام الذي لا يعنيك. أعجبني جلوسك في هذه القفر المضيء، تشبه جدي في المعزولة، هناك حيث ولد وعاش ومات كالصوف، دون أن يجد المرض سبيلا إليه.

كان نعمة محاطة بهالة من الضوء، وكان يسكت عاما ويتكلم ثلاثين ثانية، جملة أو جملتين، كأنما اكتشف بلاغة الصمت وعاف اللغة، لغتنا التي لا تقول شيئا. قالوا لي إن الحكيم أعلم بما بك. قلق وحزين يا جدي.

قد أعلم وقد لا أعلم يا ابني. ردّ عليه الحكيم وهو يقلب صفحة الكتاب بإصبعه النحيلة. اسمع جيدا: هذا الإنسان المسكين معلول دائما، وليس علة أو نبعا، إنه نتيجة مستمرة لحلقات ماضية. قد يكون علة في سياق عابر لا شأن له، لكنه يظل تابعا لأنه لن يكون سوى لاحق للسابق، لأفعال انمحت بشكل ما، ولسبب ما، أو كادت، كذلك كان، وكذلك سيكون.

يجب تشغيل كلّ الحواس دفعة واحدة لمعرفة هذا. الذكاء وحده لا يكفي لمعرفة الحقيقة، حقيقتنا نحن أبناء الصدفة. أنا لا أعرف سوى في حدود المربع الذي أجلس فيه قانعا بقدري البشري الأعزل، أمّا المربعات الأخرى فللآخرين، للعارف والفقيه والمتصوف والزاهد والعالم والكاتب، لهؤلاء الذين نظروا إلى الكون بالحسّ، بأعين أخرى تختبئ في ضوء النفس اليقظة.

لا أحد منّا يدرك فوق الحدّ يا بنيّ، تعلّم هذا جيدا واحفره في النفس،هناك حالات تنتهي فيها المعرفة والحقيقة وتصبح الأشياء كلها باهتة، عندها تقف الأسئلة كالصفصاف لتضحك علينا نحن التعساء، حفدة الألم والبكاء. السؤال هو قدرنا الوحيد في الكون،

أمّا الأجوبة فمرحلة نحو السؤال الخالد الذي لا جواب له، نحو الحيرة التي لا حدّ لها. من نحن وكيف ولماذا؟ وبعد؟ ثمّ ماذا؟

أنا أقيم ها هنا، في ممشى آخر اخترته لنفسي البهيمية، ما بين الاستفهام والاستفهام أتراوح كقلب الغريب، ذاك ما وصلت إليه بعد هرولة لا قيمة لها. كنت مسكينا إذ اعتقدت خطأ أني أعرف كثيرا، أعرف ما لا يعرفه الدهماء. كلنا غوغاء في جهة ما، ما من معرفة جزئية أو كلية إلاّ ووراءها سؤال يقوّض راحتها. تلك هي مأساتنا الخالدة، ومن ادعى العكس فإنه يهرف بما لا يعرف، وما أكثر هؤلاء في الدنيا.

ـ لم أفهم كثيرا أيها الحكيم، علّق عبد الله وهو يلقي بعينيه في أطراف الكوخ المعلق على ربوة محاطة بشجر الزان، وكان يستفسر في أعماقه عن سبب قدوم الرجل إلى هذا الفراغ المديد. شبهه بنبتة متوحشة ولدت في الغابة وبقيت عزلاء تنتظر شيئا ما عديم التصنيف، دون أن تعرف لماذا وجدت وكيف؟

غرس الحكيم وجهه في صفحات الكتاب القديم، شرب ما قلّ من سطل قديم التقطه من الوادي الجليل، وقال له من تحت نظاراته السميكة التي تكسر جزء منها وربطه بخيط غليظ:

ـ لا داعي لذلك، لا داعي للفهم، الأسئلة أهمّ من الأجوبة الميتة، أنا أيضا لم أستوعب شيئا بعد رحلة طويلة من القراءة والتفكير في كل شيء ولا شيء، في القاصي والداني والنملة والنبتة، وإذ حاولت

أن أفهم وصلت إلى هذا المقام الذي تراه، أجابه وهو يرنو إلى الأفق حيث يسكن السؤال الأعظم الذي حيّر العقل. لم تكن الأرض مأواه، كان هناك في البعاد مع أجداده الذين كانوا هنا يدبون، ثم أصبحوا هناك، في غياب ما، منتهاه القريب حيث تحط الرحلة وتستوي الأشياء، هناك فقط تبدأ معرفة أخرى، أو رحلة أخرى نحو ما لا تدركه التجربة التي شحذتها الأيام فتاهت بين الشك والصمت واليقين.

- يا سيدي الكريم. مشكلتي أني متعب، متعب كثيرا، هشّ ومريض بشيء غامض لم أحدده. قال له عبد الله، ثمّ أضاف: قلق وحزين يا جدي، حزين جدا. أصبحت لا أحتمل أحدا، لا أطيق نفسي، قلبي ينبض فوق الحدّ، يكاد يثب في الطريق، كأنه قلب غريب في بلاد غريبة وغامضة. أشعر بألم شديد يقضّ العمر، بظلام يلفني. يقول الأطباء إنها مسألة إحساس عابر، مرض وهمي قد يستغرق أعواما، انفصام الشخصية، صعوبة الانسجام مع الذات والمحيط، نوع من الهبل أو الوسواس، قلة إيمان، حسّ مفرط، هل هذا صحيح؟ لا يمكن أن أكذب على نفسي في هذه السنّ يا جدّي. لا يمكن أن أتألم بلا سبب. لست مجنونا. أعرف هذا.

وضع الحكيم مسبحته على حجر مسطح اتخذه صديقا وسجادة، سوّى نظاراته، مسّد لحيته البيضاء التي كالثلج على الرابية، ألقى بالسطل الفارغ جانبا، وشرب ماء زلالا من قنينة ملفوفة بكيس من القش، ثم نظر إلى سحنة المريض المقنفذ أمامه وسأله: هل أنت

متزوج يا ابني؟ تبدو متعبا كهذا العالم الذي نحن فيه خطأ.

لم أفكر في هذا. ردّ عليه عبد الله بنبرة العارف، تقول الزواج؟ لقد فعلوها من قبلي وخسروا كل شيء. كانوا أفضل قبل ذلك، كانوا رجالا، ثمّ أصبحوا جنسا ثالثا، حثالة كبيرة لا وجه لها، شيئا عديم التصنيف.

ناقص تهلكة كبيرة قد تلحق بك أذى لا علاج له، علق الحكيم وهو يتأمل شجرة الدردار الوارفة التي وقفت مزهوة أمام باب الكوخ الطيني الذي شيّده في أسبوع وجعل منه بيته ودنياه. قال سأختزل كلّ شيء لأحصل على كلّ شيء، لا داعي للجري في الظلام، راحة البال أولى من هذا وذاك، وذات ليلة اختفى ولم يعد يسمع سوى صدى الأسئلة وأغاني الرعاة والوعول في الغابة المقدسة التي غدت مأواه، ثم جنته.

- هل أحرقت جامعا أو أكلت لحم يتيم مثلا؟ سأله مطأطئ الرأس، متأملا كتاب الأسرار الذي ورثه عن حكيم عاش قبله بسنين، قبل أن يرحل صامتا عن آخره.

أبدا. لم أعتدِ على حشرة، علّمني الوقت كيف أنظر باحترام إلى كون أكبر مني بملايين السنين الضوئية، اليتيم الذي يدرك معنى اليتم لا يأكل لحم اليتيم لأنه يعرف طعمه بالسماع، لأنهم أكلوا لحمه يا جدي، لأنه شعر بالوخز، بآثار الأنياب على لحمه، بالسكين والشوكة،

شعر بصراخ الجلد، أحسّ بالألم، بالظلم المرير. أجل. أحسست بكلّ هذا فتأدبت، ثمّ عفت الأكل.

علا وجه الحكيم نور سماوي فشكر عبد الله على الإجابة العميقة. لم يتوقع ذلك من شاب ينتمي إلى مرحلة المرارة، إلى تاريخ طويل من الأمعاء المكدسة في الفعل والكلمة. كان الناس في ذلك الوقت الكريه أكبر من الدنيا وهوائها، يستيقظون بعد عشرين ساعة من النوم والأكل ويقفزون إلى المعرفة والفتاوى مطمئنين، ولم تعد الحياة بخير. ماتت الدنيا وهاجر الملائكة من شدّة مسيْلِمة.

ـ من أين تعلمت هذا؟ استفسره الشيخ محاولا معرفة النبع الذي يستقي منه كلماته الغريبة. بدا له استثناء، حالة شاذة في تاريخ البلدة التي لا تفتح كتابا واحدا في القرن.

من الكتب، ومن ألسنة تردد ما قاله شيخ مثلك عاش في القرية ساكتا قبل أن يهجرها ويذهب إلى الغابة من أعوام. ما زال صوته يحوم في كل مكان، كأنه قدر. كبار السنّ يقولون كان بركة ونعمة ذلك العبد الضعيف الذي ظل يستحي من الأرض وما تحتها وما فوقها وما بينها وبين الفضاء والسماء، قيل إنه سقط من فلك آخر، من مجرة أو غيمة.

كان كلّما سأله أحد ردّ عليه بصوت خفيض لا يكاد يبين: شبعت منها ومنكم. لا بدّ لي أن أرى في المرآة العاكسة ما كنته. أريد شيئا

آخر. الأشياء التي تتكرر تقتل كلّ شيء، تصبح سيفا على الرقبة، وذات يوم ماطر اختفى عن الأنظار. حمل كيسا صغيرا على ظهره ولم يرجع إلى بيته القديم. ماتت الحكمة في القرية وأصبحت الابتسامة مصيدة. لم يعد الناس يحبون الخير للناس، كانوا كلهم أعداء، وهاجر الريحان والعصفور إلى الفيافي البعيدة.

ـ لأنهم يولدون ميتين ويعبرون الدنيا مهرولين نحو الخراب. الحياة أكبر منهم، ردّ عليه الشيخ من تحت برنسه وهو ينظر إلى الأفق حيث تكتلت غيوم بانتظار مهمة ما. قد تمطر، هذه رحمة من عنده، أضاف وهو يفرك حبات المسبحة البيضاء التي تكبره بسنين. لعلّها لأبيه أو جده أو لأحد عابري السبيل الذين كانوا يقضون لياليهم في الجامع الوحيد، ثمّ يأفلون كالنجوم ولا يعودون.

تفحصه من ألفه إلى يائه وقال له بصوت خفيض لا يكاد يسمع: أحببت أن أسألك يا ابني فاصبر، مجرد سؤال لأتأكد من شيء يعنيك ويعنيني في هذا المقام السعيد: يجب أن أعرف الحقيقة، حقيقتك كاملة. قل لي: أنت لم تقتل، لم تسرق، لم تأكل لحم اليتامى، لم تحرق كتاب الله، لم تكذب مع الكذابين، لم تظلم أحدا، لم تطمع في رزق الناس، هل تتابع نشرات الأخبار التي تلقى على الناس في إذاعات المملكة؟

أجل يا سيدي. أتابعها يوميا، لكني لا أحبها. تبدو لي سخيفة وعدوانية، كرزمة من الأفاعي، سامة ومخيفة. أتابع دون أن أسمع، وإن

سمعت لا أصدق.

ـ هذا مؤلم حقا، علق الحكيم دون أن يلتفت إليه، وسرعان ما أضاف بصوت خافت: وهل تتابع ما يقوله ذلك اللعين الذي سكن في الشاشة مذ قدومه إلى مملكة الطاعون والمتملقين الذين ملأوا البلدة؟

أجل. ردّ عليه عبد الله بإعياء، أستمع إلى كلّ ما يقوله. لا خيار لي ولهم. أستمع وأضحك، لقد وعدنا مؤخرا بجنة نخلد فيها كلّنا. أقول لك الحقيقة: يبدو لي مهرّجا كبيرا يعافه الموت، لذلك تركه هناك يهذي، يرقص ويغني وجناحاه يردان عليه.

أجل، وعدكم بالجنة وبئس المصير، أكمل الحكيم وهو يفرك حبات المسبحة. نعم. جنة النعيم. اكتشفت الآن أسباب مرضك الخبيث، متأكد من ذلك. عرفت جوهر المشكلة. لا يمكن أن أخطئ في هذا، الأمر بسيط، مسألة تجربة. لهذا هربت من هناك، لم أستطع تحمل الأذى. سأعطيك وصفة وجب عليك أن تتبعها حرفيا، بداية من الآن، ودون تأخر. أنا أيضا مررت من هناك وسمعت، ولهذا هربت، لم أستطع تحمل الأذى. هؤلاء كذابون محلفون، ولولاهم لكانت الطبيعة أبهى مما هي عليه، أشبّههم بأورام فتاكة، ماذا يمنحك الطاعون عندما يسكنك؟

أنت محظوظ إذ عشت إلى اليوم، لأنك لم تمت بسكتة قلبية،

بنزيف دماغي حاد، عليك أن تقلع عن هذه العادة السيئة احتراما لخالقك. أنت تنتحر، تقتل نفسا بغير حق، توقف فورا عن متابعة نشرات الأخبار وما تقوله ليستعيد قلبك بهجته القديمة. هذه وصيتي لك ولغيرك من المرضى والمحزونين. قلبك ليس حفرة تبتلع كلّ ما يرمى فيها من نفايات. إنه دمٌ مسكينٌ يستحق الشفقة فاعتن به دائما. هذا هو علاجك الوحيد. لا تستمع إلى نشرات الأخبار التي ينتجها طراطير الملك وتبثها قنوات الصرف.

كلّهم مرضى

قرر أن يبيع في سوق القرية سلعته الجديدة التي لا مفرّ منها إن كانوا يبحثون عن الشفاء لسقمهم المزمن. الناس كلهم مرضى وسيشترونها بسعر خرافي للهرب من الألم والموت، سيتزاحمون ويتدافعون كالدجاج في مجلس الخمّ، بحثا عن أي شيء ينفع ولا ينفع. المهم أن يقتنوا شيئا ما، ذاك ديدنهم، يشترون ما لا يشترى ويدّعون المعرفة، يدّعون أنهم يعرفون ما لا يعرفه الشيطان.

لا أدري كم هو عدد الأكياس التي سأملأها اليوم بهذا الدواء الجديد، مائة، مائتين، خمسمائة؟ البركة في القليل، كما يقولون. المهمّ أن أرفع عني الغبن أسبوعا أو شهرا. أحصل على راتب من رؤوس الحمقى، وما أكثرهم. المؤكد أنّ هؤلاء لا عقول لهم، أعرفهم جميعا، من ألفهم إلى يائهم. لو كانت لهم سحابة عقول لفكروا قليلا، كما الجرادة. لذلك أضحك عندما أنظر إلى أعماقهم، يبدون لي دمى وبهاليل، هؤلاء هم الهمّل الذين تحدث عنهم شيخنا في المقدمة،

همّل محترمون.

سيشترون كلّ السلعة ويطلبون المزيد، أعرف هذا، حفظته من سنين، يشترون ما يهمّهم وما لا يهمّهم، ما يشفيهم وما يضرهم، سيشترون حتى الطاعون، المصائب، الحصبة، الجرب أيضا، خاصة عندما يكون مستوردا من فرنسا أو من الشركات الأمريكية المتحدة. الجرب الفرنسي أيضا علاج لكل الأورام الخبيثة التي فتكت بالبلدة وألقت بها في السديم. ماذا أقول؟ الحمار راكب مولاه. هذا هو الملخص الكافي الشافي.

حمل الأكياس وانسكب نحو السوق النائية يدندن لحنا قديما حفظه عن الأجداد الميامين الذين لم يعيشوا، مرّوا على الدنيا خفافا، ثمّ رحلوا، وكان يردد في أعماقه: يا لك من ذئب يا سمعان، وسمعان كان فقيرا وعليلا كحذاء قديم هزمه الوقت والفاقة فارتاح من الأمل والتفاؤل ولم يعد يفكر في المستقبل. كان يعيش بلا معنويات، وكان يتمنى أن لا يصادف في طريقه أحدا ما ويسأله عن الحمل. بيد أنه وجد في باب البيت جارا وسأله محاولا فتح كيس من الأكياس الشفافة التي بدت له فارغة سوى من الهواء. كانت منتفخة عن آخرها.

سأبيع لا شيء، هل تفهم هذا؟ قليلا من اللاشيء بأسعار مقبولة، أو شيئا من الأوهام للواهمين مثلك ومثلهم، أوهام بالتوابل، بيضاء وسوداء وملونة، تشابه البقر علينا، ردّ عليه قبل أن يسأله، ثم أردف

بصوت نحيل لا يكاد يسمع: سأبيع الهواء العليل، قليلا من الريح للمرضى، وما أكثرهم. أبيع ما شئت لمن شئت، ومتى شئت. هؤلاء فقدوا القدرة على التميز وتاهوا في العمى. عظم الله أجركم جميعا. كان عليكم أن تصلوا على أنفسكم صلاة الجنازة من سنين، لكنكم تكابرون، تظنون خطأ أنكم أحياء ترزقون.

لم ينتظر ردّ الجار الذي بدا متطفلا، ملحّا على مزيد من الأسئلة. حمل سلعته ومضى غير آبه به، سيسأله عن كلّ تفصيل، نوع الحمولة وفائدتها ومصدرها وقيمتها ومنتجها، سيسأله عن جده الخامس عشر، طوله ولون عينيه وعنوان بيته ومقاس حذاء الدجاجة والألف. الناس لا يستحون في هذه البلدة الخرقاء، ينهضون فجرا ليستفسروا، كأنهم مخبرون. لا حول ولا قوة إلا بالله. لو أنك ارتديت جوربا به ثقب في جهة الأصبع، ولبست حذاء عسكريا جديدا لأبصروا الثقب في الجورب وأخبروا الناس والحيوانات والقنوات التلفزيونية ومنظمة الصحة العالمية والحلف الأطلسي والأمم المتحدة، اللعنة عليهم، لا شغل لهم في الدنيا سوى التخابر. ذرية الهزائم والعار.

- هواء، هواء نقيّ جدا من بلد بعيد، راح ينادي المتسوقين بعد أن وضع الأكياس على التراب وكتب على ورقة بلون أحمر جذاب: هنا علاج كلّ الأمراض المستعصية، القديمة والجديدة: هنا قبر السعال، قرحة المعدة، الرّبو، ضيق التنفس، الفقر، الأرق، الهذيان، الاضطرابات النفسية، الغدة الدرقية، البواسير، الوسواس، السحر،

الجهل، السياسة، النباتات الطفيلية، الطاعون، عسر الهضم، التخلّف، الرّمد، كبش العيد، الرّبا، العطش، الصرع، المعكرون، السفلس، الصدفية، البق، القمل، الذباب، الناموس، الممهلات، البغال، الحساسية، النفاثات في العقد.

اقترب منه أحدهم وسأله إن كان الدواء يفيد البلعوم وجفاف البشرة وآلام المفاصل والرشح، فردّ عليه بأنه جرّبه على نفسه فشفي لتوّه، مسألة ساعة أو ساعتين أو شهر أو شهرين أو عام أو عامين، يستنشق ثلاث مرات في اليوم قبل الغداء والعشاء والنوم وانتهى الأمر، سينسى البلعوم إلى أبد الآبدين ولن يتذكره، سينسى كلاهما الآخر ولن يراه حتى في الحلم. بشرط أن يقرأ المعوذتين قبل تناوله بسبع دقائق.

ناوله كيسا مليئا بالهواء وعدّ نقوده، وإذ لاحظ أن الناس غير مهتمين كثيرا بهوائه بدأ ينادي بأعلى صوته: هواء من مكة المكرمة، هواء من الحرم الشريف، من بئر زمزم، من الصفا والمروة، من جبل عرفة، من فرنسا، من الولايات المتحدة، من اليابان، من ألمانيا، من جبل أحد، من محيط قبر الرسول، هواء متنوع لمعالجة السقم. أسرعوا قبل أن ينفد.

تحلق الشباب والشيوخ من حوله ولاحظوا أن الأكياس قليلة، كانوا يتزاحمون عندما طلب منهم احترام الطابور واجتناب الفوضى، قبل أن يقرّر التوقف عن البيع أو رفع الأسعار. لكنّ المتسوّقين طلبوا منه أن

يرأف بهم وبفقرهم، فتراجع مطمئنا الجميع بأنه لا يريد لهم سوى الخير والرقيّ بفضل الهواء الذي استورده في باخرة من البقاع المقدسة ومن بلدان مجرّبة، هواء نافع لا مثيل له في الكون مذ خلق آدم.

هل يصلح لعلاج الفاقة؟ سأله كهل متهدل وهو يفتل شواربه الكثة.

وهل تظن أني أمزح عندما أبيع دواء صنع في أرقى مخابر الدنيا؟ أجابه، ثمّ أردف جادا: خذ هذا الكيس وارجع بعد عام أو عامين، أنصحك أن تتناول هذا الدواء مع العمل، يجب أن تجتهد، أن تعرف معنى العرق. سأكون صريحا معك: هذا الدواء لا ينفع مع الكسل والاتكاء على حيطان القرية بانتظار معجزة من السماء.

لكنّ الأكياس متشابهة، علق الكهل وهو يشعل سيجارة.

وهل أنت كيميائي لتعرف مكونات المادة؟ أجابه سمعان مستاء، ثم أضاف وهو ينظر إلى الزبائن تارة وإلى الأكياس تارة أخرى: العلماء درسوا قرونا ليصلوا إلى هذه النتيجة، وأنت تناقشهم دون أن تعرف كراسي المدرسة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، تداخلت الصلاحيات وفسدتم كالبيض، هل أنت كيميائي كبير لتفتح فمك قدام الرجال الذين اجتهدوا وبحثوا صامتين؟

دفع الرجل قيمة الكيس وانسحب من الجمع مرتاحا وهو يردد: إن لم ينفع فلن يضرّ، قد يكون هذا الهواء فأل خير، أمّا قصة العمل فمستبعدة، تبدو لي خيالية، وهما كبيرا. أنا أعمل؟ ولماذا؟

أضحكتني. سأستنشق الهواء بانتظار مفعوله القريب، من يدري؟ أما إن اغتنيت فلن أعود إلى السوق ثانية، سأقضي بقية العمر متجولا في المدن البعيدة، ثم أذهب إلى الحج.

- أحببت أن أسألك، علّق شاب في الثلاثين وهو يحاول الإمساك بسرواله الهارب منه بخطى عملاقة، هل هذا الدواء يفيد الغازات؟ أقصد الأمعاء. أعاني من شهور من انتفاخ في البطن لا أعرف سببه.

- إن أنت داومت عليه شهرين كاملين، ردّ سمعان بهدوء، عليك أن لا تنقطع يوما واحدا، خذ كيسين أو ثلاثة، على أن تتبع حمية صارمة، أن تبتعد عن القهوة والتدخين والعجائن والقلق والثرثرة، ولماذا تقلق في سنك؟ هل تريد أن تكون رئيسا أو وزيرا؟ تريد أن تحكم الأمة دون أن تتحكم في سروالك الذي يكاد يسقط؟ تريد أن تصبح غنيا دون أن تعمل؟ جرّب الدواء وارجع، سأرى إن كان يجب إضافة جرعة، المهم النية. خذ هذا النوع، إنه من فرنسا، من برج إيفل.

والعمش؟ هل يفيد العمش؟ سأله رجل في الأربعين وهو يخلل لحيته التي كانت تتجول دون رقيب.

سبحان الله، هذا الدواء سيقضي عليه سريعا، على أن لا تظل ملتصقا بالفراش كالقراد، تحرك قليلا، لا تنم سبعين ساعة في اليوم الواحد، النوم يقوّي العمش ويشجعه على الإقامة في عينيك. هل قرأت الكتب؟ سأدلك على عنوان قد ينفعك في حياتك، عليك أن

تبحث عنه، ضروري جدا.

لي مشكلة مع الكليتين، تقول التحاليل إن فيهما أحجارا صغ...
قال له رجل يشبه كيسا من النخالة، ثم أضاف موضحا: قيل لي إنها
ناتجة عن سوء التغذية، عن الماء. نحن نشرب ترابا وإسمنتا، حنفيا...
كلّها مرض. هل هذه دولة؟

هل أظل أكرر ما قلته؟ ردّ عليه سمعان مستنكرا، الأحجار الصغير...
هل هذا مشكل يتحدث عنه الرجال الحقيقيون؟ خذ هذا الكيس
واستنشقه ليلا قبل النوم بسبع دقائق، لا تتجاوز الجرعة المطلوبة
ثلاث مرات واربطه بخيط أصفر حتى لا تفسد المادة، لا يجب أن
تدخل ريح أخرى غير الريح التي بداخلها، لا تدخلوا شعبان في
رمضان، مفهوم أم لا؟ ثم تقولون لي لم ينفع الدواء. الخطأ خطأكم

مفهوم جدا، أجابه الرجل مغتبطا. سآخذ سبعة إن أنت ساعدتني
بع لي بسعر الجملة آخذ عشرين أو أزيد. لي جار مريض مثلي، يا...
دواء، حب لأخيك ما تحب لنفسك، هكذا أوصانا الرسول عليه
السلام.

- لي مشكلة مع ارتفاع ضغط الدم يا مولانا، قال له خمسيني كان
يمسح انفه بكمّ سترته، فسدت حياتي كلها ولم تنفع الأدوية التي
أتناولها من عشر سنين أو أزيد.

عليك بكيسين أو ثلاثة أو خمسة أو سبعة، أجابه سمعان مطمئنا.

ثم أردف دون تفكير: استنشق مقدار كيس أسبوعيا، من هذا النوع، لا أكثر، تأمله جيدا، هذا هواء نافع ومختلف عن هذا الذي على الجهة اليمنى، لا يتواجد إلا قريبا من قبر علي رضي الله، وعلى مسافة قصيرة من قبر عائشة أمّ المؤمنين.

أخذ أربعة أكياس احتياطا واختفى ليترك المجال لشيخ تجاوز السبعين بسبع سنين كان متوكئا على عصاه، عطس الشيخ مرتين واخترق الصف وهو يسعل محاولا ترتيب ألفاظه التي بدت متنافرة:

الزهايمر، اللعنة عليه من داء يا أولادي، أحببت أن أسألك يا ابني إن كان هذا الهواء مفيدا للزهايمر، أصبحت أنسى كثيرا، وها هي يداي ترتعدان كالأسلاك. أبعد الله عنك هذا الداء وسترك منه وحفظ المؤمنين.

هل راجعت الطبيب يا عمي؟ سأله سمعان، ثمّ أضاف؟ وماذا قال لك؟ ماذا قالت التحاليل؟ نتائج التصوير بالأشعة؟ هذا مهمّ جدا لتشخيص حالتك. عليّ أن أعرف كلّ هذا. ارجع بعد أسبوع ومعك الملف كاملا، لكني لا أعدك بشيء، قد لا يصلح لك هذا الهواء الذي جئت به من الحرم المكي، من الكعبة، من غار حراء، ومن كل الأماكن المقدسة. لا. لا. لا أنصحك بشيء. لا أتحمل المسؤولية. عيب عليّ. هناك دائما حدود لا يجب تجاوزها. أقول لك لا ترجع. انظر مع الحكيم أفضل لك، هذا الدواء لا ينفعك يا الحاج.

ثم تخطى الجمع واقترب من الشيخ العليل بخطى وئيدة، صافحه، ربت على كتفه بحنوّ وقال له في أذنه شيئا ما لم يسمعه أحد من الجمع. رآهما الناس يضحكان وقد علت وجهيهما علامات غامضة، لكنهم لم يفهموا ما قاله سمعان وما سمعه الشيخ المريض. كانا محتفلين وحدهما في السوق بعيد الحقيقة.

....

نفدت الأكياس المملوءة هواء بسرعة كبيرة، وإذ رآهم سمعان مزهوين بكنوزهم وهم يسبّحون ويحمدون الله اندهش. لم يصدق ما سمعه، كانوا يقولون إنّ الرجل محقّ في ما قاله، لم يكذب علينا، السيد مجرّب، وعام كبير، وكان يردّد في سرّه: عجب. التقطت أغلب هذه الأكياس من النفاية ونفختها فإذا بها شفاء للناس، محال، لن يشفى هؤلاء المشعوذون من أوهامهم ما لم يعرفوا حقيقتهم المريرة، يلزمهم حقنة ليستيقظوا من موتهم، هواء من الحرم المكي؟ من ألمانيا وفرنا، من جبل أحد؟ يا للنكتة، ومع ذلك؟

كوني بردا وسلاما

لا أحد يعرف من أضرم النار في ذلك اليوم القائظ الذي لم يكن صديقا وقورا يحترم قدر الحيّ المنفوش كجملة من جمل المسؤولين الذين لا يتوقفون عن مدح فخامته. التهمت الطابق السابع من العمارة القديمة وهبّ الناس خفافا يطلبون النجدة من العابرين المكدّسين أمام المدخل والمحال التجارية الحقيرة يلوكون اللبان والأحاديث المنتهية الصلاحية ويلقون ببقاياها على الأرصفة المتهدلة. كانت أعناقهم مشرئبة وأفواههم مغارات سحيقة تختزن حكايات الجيران والبلدة. كانت حكايات صفراء كالجراد. وها هم أمام حكاية جديدة سيسدون بها فراغهم المهيب.

لم يصل رجال المطافئ في الوقت، تأخروا كثيرا. زعم الناس أنهم سيأتون بعد ساعات، أو بعد أسبوع، سيأتون بعد المحرقة العظمى لتقديم تقارير عن الموت، موتنا، كذلك علّق الجمهور الذي خرج مهرولا من الملعب المجاور، محاولا إنقاذ العجائز والأطفال من اللهب

الذي كان يأكل النوافذ والأبواب الخشبية القديمة التي تسوّست وغدت آثارا. كانت نارا ليست كالنيران التي رآها السكان من قبل، قيامة قبل أوانها. السكان يرحلون هنا قبل الأجل، وأمّا الأسياد فلا وقت لهم للموت، لا وقت لهم للإحساس، يعيشون في السماء ولا يبصروننا نحن الأهالي، سكان الكهوف المتعبين، كذلك علّقوا متذمرين من الجميع، من الحاكم والمحكوم، ومن حظهم العاثر مذ وجدوا في كوكب الأرض خطأ، كأنهم أذنبوا في حق الآلهة والأولياء.

عبثا نصّبت السلالم ومُدّت الحبال الطويلة إلى الأعلى حيث تحتفل القيامة بعيدها الموسمي، إلى أن وصلوا متأخرين بالسيارات وخراطيم الماء، لكنهم وصلوا، وسيجتهدون كثيرا لإنقاذهم. كانت الأنابيب تحاول محاصرة النار من كل الجهات، وكان رجال المطافئ يمدون جسورا للعالقين في الأعلى بانتظار تخليصهم من الموت الوشيك الذي أصبح صديقا لا يخافه أغلب الناس الذين سئموا كل شيء وتاهوا مع التائهين في المدن المعطوبة. كانوا يسمونها مدن العار والدياثة.

لكنّ السيد العجيب مكث في شرفة بيته بالطابق السادس. لم يأبه بهم وبهتافاتهم التي هزّت الحيطان والأرصفة الحدباء. خرج إلى هناك مرتديا جبته البيضاء القذرة وراح يصرخ بصوت عال وهو يرفع يديه بالدعاء، دون أن تبدو عليه ملامح الخوف: يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم، كوني ثلجا رحيما، اللهم اجعلها نعمة عليه وعلى أتباعه

من المؤمنين والمؤمنات الصابرات القانتات، المرتديات جلابيبهن في هذا الحرّ الذي ابتلينا به نحن المردة وحفدة الشيطان، اللهم اجعلها نقمة على الكفرة الفجرة الذين ملوا الدنيا فجورا وبهتانا. اللهم ارحم عبدك الضعيف ونجّه من هذا البلاء العظيم، إنك أرحم الراحمين يا رب العالمين. آمين.

- انزل يا ابن آدم، أنت جننت، ماذا تفعل هناك وحدك؟ ناداه المتفرجون والمتفرجات متضرعين للبارئ أن يبدّل رأيه بعد حين عله يفلت منها. لا تركب رأسك يا ولد. كن عاقلا ولا تلق بنفسك إلى التهلكة. اهرب. حرام عليك أن تموت بهذا الشكل البشع، أنت في كفّ عفريت، هل تعي ذلك؟ ستقضي عليك النيران وتجعلك شواء، ما بك يا رجل؟ المؤمن العاقل لا يلعب مع هذا اللهب.

هل فقدت عقلك وسعرت؟ عرفناك عاقلا، رغم تهورك، رغم مغالاتك، رغم كل شيء. لا يمكن أن تبقى هناك وحيدا أعزل عرضة للحريق. ستبلغك النار بعد حين، بعد لحظات ستأكلك عن آخرك، انزل بسرعة ولا تلتفت إلى الوراء بالمرة. لا تبق دقيقة واحدة حيث أنت. لن نتركك وحدك تلتهب كالفراشة، تحترق كفأر في جحر سحيق. أتعبنا الفقر والمرض والحزن وكثرة الجنائز التي لا تنتهي. ما أن ندفن حزنا حتى يأتي حزن أكبر منه، الأحزان عندنا لا تنتهي أبدا، لا مكان للسعادة في هذا الحيّ، كأننا ملعونون من بداية الخليقة.

اسمع جيدا ولا تكن عنيدا، هذا لا ينفع. هل أنت جاد أم تمزح؟

سنتألم مرّة أخرى إن وقع لك مكروه. لا ينقصنا سوى البكاء على الموتى. شبعنا اليوم من الآلام. اكتفينا. يكفينا ما فينا. كأننا جئنا إلى هذه الأرض لنودع قوافل الراحلين قبل الوقت، لنقضي أيامنا ولياليناً متحسرين، كأننا ملعونون لسبب ما. ابتعد عن الشرفة حالا، حاول أن تتفادى جهنم. السلالم تكاد تكون لعبة أطفال. لا تثق كثيرا. لم يبق لك سوى التسلل مع الأدراج علّك تفلت منها معافى. ضع كيسا مبللا على وجهك والتحق بالجيران. أملنا فيك كبير. قاوم الحريق كما فعلنا نحن. لا أحد يستطيع إنقاذك من هذا الرعب. قاوم يا جارنا، أنت لا تعي ما تفعله الآن. هل أنت نبيّ؟ إنك مخطئ في تصورك.

كان ينظر إليهم من عليائه تارة، وتارة يرفع رأسه إلى السماء، يتأمل الأفق النائي، مكررا بصوت الواثق من نفسه: يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم، يا نار كوني ثلجا يطفئ هذا اللهب المحيط به من كل جهة، يقولها سبع مرّات وقد بحّ صوته الجهوري من الصراخ والسعال، وكان يحاول جاهدا أن يغطي فمه وعينيه بطرف جبّته الطويلة لصدّ الدخان الذي اختلط باللهب المتصاعد من العمارة التي بدأت تتفحم تدريجيا، تاركة لونها للرماد.

لكنه لم يفلح في مقاومة الدخان الكثيف الذي لفه بلون الموت. كان يسعل وسط جبته التي حملتها الريح إلى الأعلى كاشفة عن ساقيه، بيد أنّ الجيران ظلوا يلحون عليه متضرعين للبارئ أن يوقظه من وهمه العجيب: الحكمة أنفع يا رجل. هذا تهوّر، للإيمان حدوده،

أنت تلقي بنفسك إلى التهلكة، أنت تنتحر دون أن تعلم، تقتل نفسا حرّم الله قتلها إلا بالحق، تريد أن تكون أكبر من حجمك، أكبر من حقيقتك البشرية؟ كأنك لا تعرف من أنت. تأكد من هذا: لن تكون بردا وسلاما عليك، محال، ستشويك والسلام، ذاك ما سيحصل بعد لحظات. لقد ولّى زمن الأنبياء من قرون. انتهت المعجزات معهم ولم يبق سوى هذا الذي تراه، هذا الهراء الكبير، وهؤلاء المردة الذين لا يبصرون سوى أنفسهم. أنت الآن في وقت آخر، في دنيا أخرى. تذكر هذا جيدا ولا تغامر بانتظار فتح ما، نبوة متأخرة، ومستحيلة.

إلى أين أفرّ؟ ولماذا أفعل ذلك يا ناس؟ من أنتم أيها الكافرون والفاسقون وأعداء الله؟ يا أحفاد البغل والشيطان، يا قليلي الإيمان، تفرون من القدر؟ من مصيركم؟ من الحتمية؟ وهل أهرب من رحمة الله إلى رحمة الله كما قال خليفتنا؟ كذلك كان يردّ بغضب على الجيران المتحمسين الذين كانوا ينادونه من الأسفل محاولين منعه من البقاء في الشرفة التي حاذتها النيران، ثم يعود إلى جملته وينطقها متضرعا، مضيفا ما تسير من الأدعية: يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، كوني ثلجا رحيما عليّ وعلى المؤمنين أجمعين في كل بقاع الدنيا. يا نار احرقي الكافرين تباعا، واحدا تلو الآخر، اجعليهم حطبا وتبنا لعلهم يبرأون من كفرهم. كان يرددها ممتزجة بسعال حاد جعل الكلمات مبتورة، ومبهمة، وبالكاد يتلقاها المتجمهرون في أسفل العمارة بانتظار إرغامه على النزول. كان يختنق

في الشرفة الملتهبة وقد احمر وجهه وتعرق. لم يعد هناك متسع من الوقت للتفكير والدعاء. كان يختنق، قبل أن يختفي عن الأنظار.

مرّت الدقائق كسيحة، ثم انطفأت النار بفضل خراطيم الماء، أو بقدرة قادر كما قالوا غاضبين. أكلت ما وجدته في طريقها إلى أن خبت متأسفة على فعلتها النكراء. لكنّ الشاب الذي كان يردد يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم بقي في الشرفة. لم ينزل ولم يهتم بأحد، توقف عن التضرع ولم يعد ينبس. لقد احترق عن آخره، تفحم وجهه الجميل المضيء الذي كان يعبر الحيّ كلّ مساء باتجاه المصلّى الصغير الذي بناه شباب الحيّ بمالهم وعرقهم. اختفت لحيته الطويلة التي التهمتها النيران، وبقي الصدى وحده يردد بصوت أبحّ يائس: يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم.

وإذ وصل رجال الدرك والشرطة وسألوا عن عائلة الفقيد من أجل التحقيق معها في أسباب الوفاة، أجابهم الجيران محزونين وهم يتأملون بقايا الحريق: تسألون عن المرحوم الذي كان في الشرفة قبل قليل، ذاك الذي كان يتضرع إلى الله لينقذه من اللهب؟ يا للمسكين، كان منعزلا ووحيدا، اسمه الحقيقي الطاهر بن عبد الله، وليس إبراهيم كما كان يقول. لعله كان مخطئا في الدعاء، وأضاف شاب كان يضع رأسه بين يديه متحسرا: لذلك لم تصبح النار

بردا وسلاما عليه، كان مخطئا في تضرعه رحمه الله، ربما نجا إبراهيم ما في جهة ما، أمّا هو فسندفنه اليوم أو غدا بعد صلاة العصر، لكننا لا نعرف من سيدفننا نحن التعساء، قد لا نكون محظوظين مثله. كان الخالق معنا في هذه المحنة.

لا يولون أهمية

... ثمّ قرّر علية القوم بعد اجتماعات ومشاورات حثيثة استبدال إشارة ممنوع التوقف بإشارة فيها قبس وعبرة: التوقف أمام المشفى حرام على كل مؤمن ومؤمنة، وحرام على المسيحيين والبوذيين والمرائين والذين لا دين لهم ولا ملة. كتبوا التوقف بخط أحمر بارز، وأمّا حرام فكتبوها بخط مغربي مذهب علّ البارئ يهدي السواق المدمنين على ركن عرباتهم في باب مستشفى الأمراض العقلية الذي بنيّ في وسط مدينة بني طرطور العظمى التي لم يخلق مثلها في البرية. أمّا الكفرة الفجرة وأهل البدع فأمرهم شورى بينهم، سيهديهم الشيطان أو يلقي ببذرتهم المرّة في حفرة لن يحرجوا منها إلى يوم القيامة مهزومين خاسئين. المهمّ تحرير الباب المركزي من البدو الرحل والأجلاف الذين يسكنون المدينة، دون أن يعرفوا معناها.

قرأ الناس الإشارة بعد جهد جهيد وأتوابتأويلات لا حصر لها: ربما كانوا يقصدون التوقف حرام في شهر الصيام المبارك أو في عاشوراء

أو في عيد الأضحى، أو عندما يمرّ الزعيم مع الوفد الرسمي، وربما في عيد الأعياد الذي أقره صاحب الفخامة. قالوا لا عهد لنا بهذا العجب العجاب. قالوا لا بدّ أنّ المفتي والبابا والقس تواطأوا مع الدرك ورجال الأمن والدجالين والطاغوت.

وبعد أيام من الاجتهادات والتأويلات الخارقة ختموا النقاش بقولهم نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا الأولين، لا خير في كلّبدعة. لا يهم، ممنوع أو غير ممنوع، حلال أو حرام، هذه مشكلتهم وحدهم. سنتوقف حيث شئنا، نركن العربات والدراجات الهوائية والنارية أين رغبت لأنها مأمورة كالناقة، ناقة ذلك الذي تحدثت عنه الكتب.عليهم أن يعرفوا أننا حاربنا الاستعمار من أجل حرية الرأيوالحركة، من أجل عزّتنا.نجوع ونعطشمتى شئنا. ما دخلنا نحن إن كانت البناية سجنا أو مستودعا للصوص أو مغارة أو مستشفى أو زريبة أو خمّ دجاج فرنسي؟

ومع الوقت لم تعد سيارات الإسعاف تعثر على رقعة صغيرة لنقل المرضى إلى المحتشد الذي بناه فخامته وسمّاه مستشفى الأمراض العقلية. سُدّ المدخل الكبير والأزقة والساحة والشارع الرئيس الذي بلامعنى، وغدت الأرصفة والشوارعمرائب عامة، وهكذا أصبح الراجلون يتنزهون في الطريق وهم ينكّتون ويضحكون دون مبالاة. كانوا يسيرون حيث شاءوا، اختلطوا بالعربات المتزاحمة وأصبحوا منها، يدخنون ويسعلون ويعطسون ويزمرون مع السيارات والسياسيين ويركنون أنفسهم ومتاعهم حيث أرادوا،وكانت الأبواق تمتزج بالثرثرة

فتشكل خليطا من الرعب والوحشة.

وإذ لاحظ حاكم المدينةأنّ الناس لا يولون أهمية لعبقريته وقوانينه اللاذعة وزّع عليهم ملايين المنشورات التي ألقت بها مروحية عسكرية من أعالي مدينة بني طرطور العظيمة، ثمّ جنّد الكتّاب والكتبة والرواة ورجال المسرح فألّفوا في ليلة واحدة كتابا يشبه الزمهرير. طبع آلاف النسخ ووزعها على السكان مجانا لعلّهم يتعظون ويشكرونه على نعمته الخالدة. كانت الكتب مجلدة، وبداخلها إيضاحات نورانية تربط إشارة التوقف بالمدنية والأخلاق والجار والدين والصراط المستقيم وجهنم والرسول والخلفاء الراشدين والجنة والطاعون والخبز والسردين المعلب.

لم يطلع عليها أحد من السكان الذين يشبهون الكوابيس والوهام. ألقوا بها في القمامات القريبة فأتخمت وفاضت. كان الناس يحبون كرة القدم والأزياء والموضة وأَخبار الجريمة والشعوذة وتمشيط الشعر والاتكاء على الحيطان القذرة، في حين ظلت الكتب من الكبائر التي وجب الابتعاد عن شرورها. كان سكان مدينة بني طرطور وضواحيها يتوضأون الوضوء الأكبر عندما يشاهدون الكتب والمجلات التي لا حاجة لهم بها. كان تاريخهم الحافل بالفتن مناوئا لها، لذلك ظلوا يقولون إن الكتب نجاسة تبعدك عن الدين الحنيف، وكانوا كلما عثروا عليها في طريقهمغضوا الأبصار واستعاذوا بالله من شرّ ما خلق ومن شرّ غاسق إذا وقب ومن شرّ النفاثات في العقد.

ما العمل إذن؟ تساءل الحاكم في قرارة نفسه منزعجا من الرعية التي نزلت إلى القاع وفسدت كالبيض، معتقدة أنها خير أمة في البحر والجو والغيوم التي بآلاف التجاعيد. أمّة لا تريد القراءة أمة لا أفق لها، أمة تستحق النسيان. لم يحدث أن غضب على الرعية علانية، لكنه ضجر من أعمالها وعنجهيتها، فاضت الكأس وابيضت عيناالكظيم. سيتصرف بشكل يليق بهم، سيكون واقعيا لأول مرة، واقعيا ونفعيا، لن يداهنهم، سيقول لهم من يكونون ومن يكون أجدادهم. سيصارحهم بحقيقتهم البهيمية، بوحشيتهم وبؤسهم التاريخي. سيتخذ قرارا لا عهد لهم به من قبل، أجل، سيحسبح معتوها أكبر مما كان عليه. سيقول كلمته ليتأدبوا قليلا، ليعرفوا النظام العام، ليطبقوا قانون المرور كما الخلائق، ليفهموا معنى الإشارات التي تجنب الفوضى، ليحترموا المشفى والمرضى وسيارات الإسعاف التي لا تجد مكانا تتوقف فيه، سيزجرهم أو ينفيهم ليتأدبوا، ليستقيموا جملة وتفصيلا، هؤلاء بهدلة، أتعس امة أخرجت للناس.

في اليوم الموالي وجدها السيد الفاخر جدا. فكر مليا إلى أن عثر على الحل الملائم. كلّف الشرطة والأمن والعسكر والدرك وأعوان الحماية المدنيةبربط أيدي الأهالي إلى الخلف حفاة عراة كما ولدهم إبليس قبل أجيال خلت، قال لهم مستاء إنّ هؤلاء لم تلدهم أمهاتهم في تسعة شهور، بل ولدتهم النفايات وقوافل الذباب التي تقيم في

هذه البلدة اللعينة،محال أن يكونوا أسوياء. جوّع كلبك يتبعك. هكذا أحاط أعناقهم بحبال من مسد وحملهم في شاحنات قديمة إلى الصحراء البعيدة، عازلا إياهمبسياج منيع لإبعادهم عن المدينة التي ضجت وسخا وفوضى.

وضع في المحتشد كلّ الإشارات التي تمنع العبور والتوقف فظلوا يدورون في حلقة كما الغبار. لم يعودوا يفهمون شيئا، وبعد أيام من عزلهم استقدم من الغابة والمزارع كلّ الأسود والذئاب والحمير والبقر والقردة والعناكب والفيلة ورفات ديناصورين عثر عليهما في الأهقار، أو في صحراء سيناء، وإذ لم يجد في البرية نمرا واحدا اكتفي بإحضار زرافات وبعير من حديقة التسلية لتعمير مدينة بني طرطور بسلالات جديدة تحترم إشارات المرور وترفع قبعاتها تقديرا للممهلات وإعجابا بها وبالحاكم العظيم الذي برع في إنجاز الحفر.

لم يعد أي أحد يتوقف أمام باب المشفى المركزي الحزين، أصبحت المدينة نظيفة، وكانت الحيوانات تتجول كالقطن غير آبهة بأحد، تمرّ أمام باب المشفى ولا تتوقف أبدا. كانت تعرف النظام، تمشي على الأرصفة بتؤدة، منتبهة صامتة، دون أن تتعب رجال الشرطة الذين وجدوا أنفسهم في عطلة، وفرحوا كثيرا بالمرحلة الجديدة، بالحيوان والحشرة.

- ما هذا الانضباط؟ تساءل وزير الحفر والغبار والممهلات والطين وناطحات الفساد مندهشا، كيف لم يتوقف حيوان واحد أمام الإشارة المرورية، أو يركن نفسه هناك مثلما كانوا يفعلون قبل أن أنفيهم إلى

الصحراء صاغرين؟ هذه علامة من علامات التمدن. يا للمعجزة، أصبح الحيوان أفضل من هؤلاء، وهل هؤلاء بشر حتى نسميهم مواطنين؟ إنهم ليسوا سوى فصيلة غامضة، جنس ثالث أو عاشر، نوع آخر عديم التصنيف، ذرية لا لون لها ولا وجه، قلة أدب. أمر مؤسف، لكنها حقيقة ماثلة. موتكم خير من حياتكم.

وإذ اقترب من الإشارة الجديدة ليعرف ما كتب عليها راح يقرأ ما أضافته الحيوانات بعد مشورة: احترام المرضى من الإيمان، ولاحظ أيضا أن الحيوانات أعادت كتابة مستشفى المجانين، لا تركنوا سياراتكم، ممنوع الفوضى، بخط جميل وصححت الأخطاء الإملائية الكثيرة التي ميزت مدينة بني طرطور عن غيرها من مدن الدنيا.كانت الإشارة عبارة عن أخطاء مذهبة، وكان بنو طرطور يتحدثون بلغة عجيبة تشبه الطنين، ولم يحدث أن تعلموا النحو والإملاء في تاريخهم الحافل باللغو والفتن.

عبثا حاول وزير الحفر والممهلات قراءة الإشارة المنقحة والمزيدة. بدت له غريبة عن النواميس، كانت لغتها فصيحةوسليمة فلم يفهمها، كما لم يفهم شيئا من قبل ومن بعد. حاول أن يتهجى كلماتها، أن يفككها ببطء شديد اللهجة، أن يستوعب ما تقوله العبارات الشاذة، لكنه لم يفلح. كان أميا جملة وتفصيلا، وهكذا قرر ركن سيارته أمام باب المستشفى، قبل أن يأمر العبيدبالتخلص من الإشارة الجديدة نهائيا، بانتظار أن يتعلم القراءة والكتابة بعد أجيال لن تأتي أبدا.

ليس لنا سواه

استقبله بالأحضان في مكتبه السماوي الذي هيّأته له شركة الغاز العمومية التي يترأسها السيد المهمّ، وبعد لحظات نادى على النادل في الهاتففناوله قهوة وعلبة سجائر وماء وعصيرا ومقبّلات وعسلا وقلما مذهّبا ومحفظة من جلد الغزال. أعجبته الأريكة التي انتشر عليها جاحظ الأذنين والأسئلة، وكان يردّد في سرّه مندهشا: هل كل هذا من أجلك أيها الذئب الكبير؟ كأنك لست أنت، كأني لا أعرفك كجيبي، كأنك تستحق كلّ هذا، عجب.

فرغ السيد المدير العام من مكالمته الهاتفية الطويلة ورحب ثانية بابن العشيرة الذي أرسله الزعيم من أجل وظيفة تليق بسمعة العائلة التي أصبحت عريقة منذ التصاقه بالكرسي كالغراء. سأله عن صحته وعن الكلب والحديقة والحافلات والجرّار والأرض والحافلات والمصنع وسلسلة الفنادق والقط المشاغب الذي اشتراه من الخارج ليفاخر به الجيرانوالأعداء.

كان كل شيء يسير وفق مشيئة الزعيم الذي حصل في الانتخابات الأخيرة على نسبة قدّرها الخبراء بأربعمائة في المائة، دون احتساب أصوات المهاجرين والجيش والشرطة والدجاج والهريسة والأحزاب المعارضة التي ظلت موالية له ووفية كذيل حرفالخاء، وهكذا قرر الزعيم أن يصبح ملكا من الملوك الأشاوس. غيّر القوانين وغدا كائنا عجيبا يهذي بلغتين وبالعامية.

أعرف أنك ستأتي. أخبروني بذلك. كنت على علم بالتفاصيل. كلموني البارحة. مرحبا بك في الشركة العمومية التي تطعم هؤلاء جميعا.

سأله الضيف محاولا إخفاء دهشته التي فضحها التلعثم الذي بلعاب وقبّعة: كيف وصلت إلى هنا يا سيدي المعظم؟ غريب. أنت تضحكني كثيرا في جلستك الموقرة. من تهريب المخدرات إلى هذا القصر الفاخر؟ من مطاردات رجال الدركوالشرطة والجمارك إلى هذا النعيم الذي أنت فيه؟لا أصدق ما أراه. محال أن يحدث كلّ هذا. هذه علامة من علامات الساعة يا مراد البغل. أجل. مراد البغل. أؤكد، هكذا كنّا نسميك في الحارة يوم كنت على عهدك، متشرّدا وقاطع طريق ومهرب مخدرات، تقضي يومك متكئا على الحيطان بانتظار ضحاياك الذين لا حصر لهم. لن أصدق عينيّ أبدا. من الطين إلى هذا البذخ؟ لا يحدث هذا حتى في الأحلام. اشرح لي ماذا حصل بالضبط. لا تقفز على الجزئيات. يهمني ذلك كثيرا لأعرف أين أنا.

ضحك السيد المدير العام وردّ عليه مازحا بعد أن سوّى نظاراته الشمسية وربطة العنق: كلّ هذا من فضل الزعيم، زعيمنا الذي لا يقهر، استقوى بهم، أذلّ الجميع واستوى على العرش.ذاك ما يليق به. اسمع. المسألة بسيطة. هل رأيت كيف قفزت إلى هنا؟ يجب الدفاع عنه إلى آخر قطرة من دماء العشيرة، ولو بإذلال الآخرين وإبادتهم، الزعيم هو حقيقتنا ومستقبلنا. ليس لنا في البلدة سواه، لا أحد ينظر إلينا بعده، بعين القبيلة التي انحدرنا منها قبل قرون، سنزكيه في كلّ الأحوال، وسنحميه من المناوئين الذين يمقتونه ويحسدوننا على هذهالمناصب التي خصصها للقبيلة.

كما قال الأجداد قديما:حمارنا ولا سبع الناس، سنكون معه حتى ولو بقي منه عظم واحد، عظم مكسور أو مجبور أو موبوء، لا يهمّ. المسألة مسألة وجود أو عدم. هل فهمت ما أقوله لك؟ نستفيد من المرحلة قبل أن يتبدل الوقت. الحظوظ كالميزان، تصعد وتنزل، نستفيد ونفسد نكاية فيهم جميعا. أوصيك، افتح أذنيكوفكّر في الأمر جيدا، لولاه لما أصبحت شركة النفط في أيدي القبيلة، قبيلتنا التي انتعشت بمجيئه وأصبحت رمزا ومرجعا. من كان سيهتم بنا لولا مجيئه من هناك؟ من بعيد، من كان سيبحث عنّا لولا سطوته وتقديسه للأصل؟ أصلنا، للجهة التي نبت فيها. هؤلاء هم الرجال الحقيقيون. لم ينس ناسه وعشيرته، وها أنت ترى.

فكّر جمال الكلب في ما قاله وأومأ له أن نعم، بالضبط. ذاك ما

يجب أن يكون. وقال في سره: كما قلت. خمسة على خمسة،عين الصواب، لولاه لما كنت على هذا الكرسي تأمر الناس بالمنكر. الحمار راكب مولاه. لن أفهم. هذا ما فهمته الآن، وهذه هي الحقيقة، لست مستعدا للفهم. يجب. يجب. أجل. نعم. أكيد.

لكنه لم يتكلمّ ولم ينزل عينيه من الأثاث الذي أعمى بصره. كان مأخوذا بالمكتب الذي جلس خلفه ابن الجيران ثلاثين سنة وأحاط نفسه بالسبايا وأولاد القبيلة التي ولد فيها قبل أربعين سنة، قبل أن يعينه الزعيم على رأس شركة النفط، دون أن يعرف كوعه من بوعه. القبيلة هي التي كانت تعين، توظف وتقيل. كانت القبيلة هي المشرع الوحيد، الآمر والناهي.

- اسمح لي يا مراد البغل. اسمح لي كثيرا. ألفت هذا الاسم. لأي شيء أصلح في هذه الشركة الكبيرة التي يقولون إنه البقرة الحلوب؟شركتكم، سأله وهو يجسّ الأريكة المغطاة بجلد الغزلان التي اصطادها الشماليون والخليجيون وجعلوا الصحراء مرتعا للموت، كما القيظ والهجير.

- الأمر بسيط جدا، ردّ عليه ببرودة وهو يبتسم، سأنصبك مديرا على الباب الخارجي احتراما لوليّ نعمتنا قدّس الله سرّه. لا يمكن أن يُردّ له طلب. نحن منه وهو منّا. الدم ينادي الدم.لو لم يكن هو هناك لما كنّا نحن هنا، ملوكا وسلاطين. هل تفهمني؟ إن حدث له مكروه سنصبح أصفارا، إن لم تأكلنا المحاكم والسجون. من يدري؟

الدنيا هذه تشبه الأحوال الجوية في فصل الخريف، خريفهم، أمّا نحن فنعيش ربيعنا، مجدنا العظيم.

أحرس الباب؟ سأله جمال الكلب مستاء من الاقتراح الذي بدا له مشينا. كيف أحرس الباب؟ جئت أبحث عن منصب يشرّفني. صحيح أني طردت من المدرسة وأصبحت لصا وتاجر مخدرات، صحيح أني ما زلت لصا مثلك، لكني مهمّ.

ـ أبدا. كيف تقول هذا الكلام؟ ردّ عليه ابن العشيرة مصححا. ستكون مديرا، منصبك شرفي، لا غير. لا يمكن الإساءةلوليّ نعمتنا حفظه الله. أمّا عملك الأهم فيتمثل في العودة إلى العاصمة للنوم والتجوال. لن يحاسبك أحد. زتنا في دقيقنا، كما يقولون. أنا هو ربها هنا. تقضي يومين أو ثلاثة معنا ليراك الناس، والباقي هناك في الساحل مع الأصدقاء، الصحراء قاسية ولا ورد فيها، لا أرصفة ولا جمال. لا توجد ملاهي. لا شيء إطلاقا. هناك نفطورمل وحرّ وفراغوعقارب. هذا هو الجنوب الكبير، وهناك غروب الشمس الذي شاهدته في البطاقات البريدية وفي التلفزيون.

لم يصدّق جمالالكلب ما سمعه. بدا له أنه يعيش وهما كبيرا يشبه معجزة ما. بيد أنّه تذكر وصية الزعيم، ابن العشيرة الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وهكذا اطمأنّ. سيكون مديرا عاما على الباب، يأمر وينهى، سيطلب سيارة وكاتبة تساعده. سيبدّل مشيته التي كمشية الحلزون ليبدوّ مهمّا جدا في الشركة، لن يتدحرج كما كان يفعل في

شوارع العاصمة، سيغيّر نظرته ليخافه الموظفون والغوغاء، لن يتحدث بالعربية بداية من اليوم.

انتهى وقت هذه اللغة، سيتعلم الفرنسية التي تركها في السنة الخامسة ابتدائي عندما طرد من المدرسة، سيبتسم مرة واحدة في الأسبوع، مرة واحدة أو أقل، وبالفرنسية، كما يفعل السادة الكبار. الناس حسّادوسيئون، إن ابتسمت لهم بالعربيةصعدوا فوق كتفيك وضاعت أهميتك، سيحتقرونك لأنك متواضع. هذه هي الخطة الأولية. اضرب كلبك يتبعك. عليّ أن أحسب لكل خطوة ولكل حركة، أضع كل علامة في المكان المناسب حتى أخيفهم، لا أدري كيف، لكني سأتعلم من مراد البغل، إن له تجربة كبيرة في معاملة هؤلاء. سأسأله.

هذا سائقك الخاص. قال له السيد المدير العام وهو ينعت شابا أسمر دخل المكتب منحنيا كفاصلة، ثمّ أضاف: سينقلك إلى البيت وإلى الشركة، وإلى السوق والمقهى والمطار. هذه وظيفته الوحيدة. هاتفه متى شئت. لا تتردد لحظة واحدة. لا تنس أنك مدير عام له سمعته. أنت الآن شخصية وطنية بفضل زعيمنا، مسؤول عن الباب الخارجي الذي استوردناه من الخارج.

نظر إليه جمال الكلب إلى السائق من الأعلى إلى الأسفل دون أن يحييه، ودون أن يبتسم له. بدأ يطبق خطته كمدير عام مكلف بشؤون الباب البربري الذي نحته أحد العبيد في بلاد بعيدة. سيقدم تقارير

مفصلة عنه، عن طوله وعرضه، لونه ووزنه، تاريخ ميلاده، أصوله وطبيعة خشبه، متى فتح ومتى أغلق أو لم يغلق، نوع الطلاء، أعراض مرضه إن أصيب بالحمّى القلاعية، تأثيرات الحرارة عليه، مفعول الرمل والملح والريح والكلام والصراخ والحشرات.

سيكون أمينا ولن يتخلى عنه، ما عدا في أيام العطلة، سيتركه وحده عندما يؤوب في الطائرة إلى العاصمة، لكنه سيفكر فيه، لن يخذله أبدا، ولن يخذل الزعيم والعشيرة. القضية قضية شرف وموالاة، حكاية مبدأ. لا يجب أن نعرّي الزعيم فينفض الناس من حوله. استر ما ستر الله. ذاك ما سأفعله. المهم الراتب المغري، الدراهم.

....

تسمّر جمال الكلب في مكانه عندما رأى الكاتبة، ابنة الحيّ التي كانت تخرج من البيت ولا تعود إليه إلا فجرا. تبدّلت كثيرا وأصبحت أجمل،أكثر بياضا ونورا، الأموال تجعل الفحم مصابيح. الأموال هي الحقيقة الكبرى في هذه البلدة، هي العقل والذكاء والشهادات والكتب والحكمة الخالدة، الأموال والعشيرة لا ينفصلان لأنهما جوهر. ما أسعدني. قال في سرّه وعيناه مشتعلتان.

سترافقه الفتاة السمراء في مكتبه الفخم، وسيتحدثان عن أبناء الحارة التائهين، عن الإطارات والمواهب، عن الأدمغة المهجرة إلى هناك، سينكّتان ويقهقهان ويفكران في مستقبل شركة المحروقات

العمومية، سيتطرقان إلى الترقية الوشيكة، الراتب مغر جدا، لكنّ الإدارة تبدّد الفتوة وتشعل الأعصاب، تأكلها، إدارة الباب الخارجي مسؤولية كبيرة، يلزمه حرّاس، يلزمه نائب ذو مؤهلات في التسيير، نائب مدير مكلف بشؤون الباب، يلزمه تعويضات محترمة تليق بمقامه.

سيخبره اليوم. لن ينتظر غدا. المسألة مسألة حياة أو موت. يقترح عليه الفكرة الجليلة، سيقبل، نعم، سيجد حلا عاجلا له، يستدعي أولاد العشيرة ويعطيهم فرصة، أفضل لهم من النميمة والتسكع في الشوارع الموبوءة التي لا ترقى إلى ضفدع. يلزم المدير العام للباب الخارجي مساعد له خبرة ومؤهلات علمية محترمة. أجل. مساعد بشهادة عليا في الطب أو في الكيمياء العضوية لمعرفة تحولات الخشب والطلاء.

....

بعد شهر من التجوال في شوارع العاصمة أحيل جمال الكلب على التقاعد المبكر. كان في العشرين من عمره عندما وصله قرار من الجهات العليا التي جعلته مديرا على الباب الخارجي، وقبل يوم من مغادرة الشركة وزّع السيد المدير العام الأرباح على الموظفين والموظفات والإداريين والإداريات، أغلق الشركة المفلسة واختفى في بلاد بعيدة عن الرقابة، ركب الطائرة وأخذ معه حقائب مليئة.

أصبحت الشركة كلها خرابا، وإذ دخل المحققون إلى مكتبه الفخم للبحث عن شيء ما يدينه، عن دليل يثبت التهم،لم يعثروا سوى على الحيطان الذابلة، وكانت هناك على المكتبورقة كتب عليها بخط أحمر بارز: افعلوا ما شئتم إن استطعتم إلى ذلك سبيلا أيها الأغبياء. يحيا الزعيم الخالد. المجد للعشيرة، اللعنة عليكم أيها الرعاع.

وادي الناموس

قرّر أن يحزم أيامه وينسحب من البلدةإلى الأبد. لن يأخذ معه سوى ما تيسر من الغبش الذي غدا قدرا. تقطعت به السبل الهشة ولم تعد المساحة تكفيه،لا هي ولا الهواء ولا الجغرافيا ولا مقاهي الدهماء الضاجة بالفقه. وكان يردّد قبل رحيله بأسبوع: لا الناس ناس ولا البهائم بهائم. فسد الديك، فسدت الطبيعة وتاهت وجهتي في هذا اليباب المديد. أرض الله واسعة أيتها النفس، هناك في البعاد بشر مزهوّون وملوك طيّبون لا يستولون على رزق الفراشة.

حان الوقت لكسر الأقفال، أقفال التردد الذي لازمك منذ سنين. البلدة التي لا تحتاج إليك لن تحتاج إليها. لا اليوم ولا غدا. ليس لك أن تكابر بانتظار فراغ آخر أو هوة سحيقة، حفرة ما أو نفاية معاصرة، لن تفلت من الغياهب الوشيكة أيها التائه. العمر يجري يا عبد الجليل، وعليك أن تستفيق من وهمك، أن تقرّر كما يفعل الرجال الذين لا وجهة لهم، أن تقضي على الوحشة أو تغرق فيها. لا شيء ها هنا،

المسخ هو الذي يخطط وينفذ. لا تقف بين بين، في الوسط، عليك أن تقرر في سياقات، أن تنتحر بطريقتك، أن تموت أو تزهر.

بقيّ عبد الجليل أعواما هناك في بلد بعيد. التقى بالورد والأنوار. فتحت أمامه الأبواب وغدا إنسانا يشبه الناس الحقيقيين، يعمل ويضحك ويقرأ ويكتب مذكرات غبار السنين التي انسحبت منه في بلدة وادي الناموس بلا معنى.لكنّ صمتا ثقيلا ظلّ يلازمه مذ غادرها إلى مدن الناس. لم يتأقلم مع الضوء، مع الورد والمساحات الخضراء التي كانت تعتدي على عينيه. كذلك أحس، ومرض كثيرا من شدة الأزهار والعشب، من الشجر الوارف والأرصفة القطنية التي كانت تستقبل خطاه بحنوّ فياض. كان الربيع يتعبه، ومع الوقت ازداد كآبة ولم يعد يقتات إلا نادرا، ثم هزل وانعزل، دون أن يجد متكأ يستند إليه. أصبح قشة في أرض بعيدة لا تشبه أرضه.

أحاط به العلماء والجيران وسألوه بحياء مراهقة: ما بك يا سيدنا؟ تبدو كئيباومنهارا. هل تحتاج إلى خدمة ما؟ نحن رهن إشارتك، أنت إطار هام ولا شيء ينقصك عندنا، وجودك هنا نعمة، هبة من السماء. لا بدّ أنك بحاجة إلى شيء ما. هل أنت مريض؟ هل تشعر بالتعب أو بالغربة؟ أنت تأمر ونحن ننفذ.

مسألة خاصة، أجابهم متلعثما في علاماته الضاجة، قضية ألفة، شيء عجب. فقدت سماتي السابقة وهويتي وأحسست بأني شيء من الأشياء التائهة في حقول من الزهر. لم أتعوّد على هذه الأجواء

الجديدة. هناك ورد كثير هنا، خضرة زائدة، أعراس السماء. لا أدري. يبدو أني أهذي، كما لو أنني ضدي.

كان عبد الجليل يعيش في مرقد قذر في حيّ شعبي ببلدة وادي الناموس العظيمة. ينهض باكرا بلا سبب، يذهب إلى العمل بلا سبب، يشرب قهوة الصباح ويدخن سيجارته الأولى، ثم الثانية والرابعة والعاشرة، ثم يمشي حزينا متثاقلا لا وجهة له في الكون. كانت تلك هوايته الأخيرة عندما بلغ الأربعين ولم يعثر على نفسه في بلدة القمامات والكذب الرقراق، إلى أن قرر واختفى.

تصوّرنا أننا وفرنا لك كل شيء هنا. ماذا ينقصك أيها العالم الجليل؟

لا شيء ينقصه. لأول مرة يلتقي بالحياة، بعيدا عن بلدة وادي الناموس التي قتلته، بعيدا عن أبي لهب. أصبح يدير مركز البحث ويشيّد مدن الناس التي احتضنته بدفء عارم. لكن الكآبة لم تفارقه مذ وصوله هاربا، ظلت ملازمة له كالقراد، وكان يريد أن يقول شيئا ما، شيئا غريبا لم يسمعه أحد من قرون خلت، شيئا مثيرا يشبه الهبل. كيف يقول ذلك؟ وأين سيعثر على الكلمات؟

بيد أنه استحى ووبخ نفسه مرارا، لا مجال لذلك، لا داعي للحمق. عليك أن تتكتم على هذا الشيء الغريب. عليك أن لا تسقط في هذه اللعبة، أن تكون أكبر، أن تتكئ على العقل، أن تكون رجلا. سيموتون

من فرط القهقهة ويتخذونك هزؤا، سيعتبرونك مخلوقا شاذا، من ذلك النوع الذي يتعذر إصلاحه لأنّ العطب كبير، وعميق جدا. كيف يقنعهم بأنه ليس بخير وهو يعيش كأمير من قوس قزح، كما الفراولة أو الياسمين؟ هل سيقول لهم ما ظلّ يفكر فيه مترددا كالغريب في مفترق الطرق؟ يبلغهم بالمشكلة المضحكة؟ يكشف لهم عن ذلك الإحساس العجيب الذي يقضّ راحته من شهور؟ عن هذا العجب؟

تريد طبيبا؟ سأله المدير العام. ترغب في ترقيتك مثلا؟ في الرفع من الراتب. نعطيك ما تريد. المهم كن بخير هنا. لا تقلق ولا تحزن. نحن بحاجة إليك. أنت هبة حقيقية وهبنا إياها القدر. جئت إلينا في الوقت المناسب، كأنك سقطت من السماء. كلّ شيء يتوقف عليك هنا. نحن تحت أمرك.

ـ لا هذا ولا ذاك. ردّ عليه بإعياء بعد أن استجمع شجاعته وقواه، ثم أردف مطأطئ الروح: ماذا أفعل بكلّ هذه الأموال التي تنفع ولا تنفع، وبهذا المسكن الملكي الباذخ الذي يؤوي متشردا سابقا؟لاجئ رغما عنه، من كوخ قصديري إلى هنا؟ إلى هذه النعمة التي تعتدي عليّ؟ أصارحك بخجل مرير: تنقصني قمامات البلد، ينقصني ذباب وممهلات، أنا بحاجة إلى حفر كثيرة وناموس لا يتأثربمبيد الحشرات، يتخذه عطرا لأعراسه الخالدة، بحاجة إلى وسخ وكذب وأحياء رخيصة جدا، إلى مقهى متعب، مليء بالصخب ورائحة التبغ، إلى أماكن وسخة ورديئة.

اشتقت إلى الصخب، إلى النميمة والتراشق بالحجارة وكسر زجاج الواجهات، إلى الأحياء القذرة التي عشت فيها كصرصور خائف من كلّ شيء، خائف من نفسه. لماذا لا تكذبون مثلنا دون توقف؟ لماذا تغرسون كلّ هذه الأزهار الفتية؟ لمن هذا البهاء الجليل؟ كلّ هذه الأشجار وهذه المدن التي ترقص تحت وقع الضوء وسيمفونيات الخلق؟ لماذا لا تسبّون وتسرقون وتحدثون هرجا بحجم الدنيا، مرجا عابرا للقارات؟ تمشون مطمئنين هادئين كالكرز، كأنكم موتى من قرون، أو ملائكة. هل أنتم بشر أم ماذا؟لماذا لا تنهبون دون تقشف؟ ولماذا لا تثرثرون متكئين على الحيطان صباح مساء، كما نفعل في بلدة وادي الناموس التي تشبه محتشدا لا حدّ له؟

في اليوم الموالي من اعترافه العجيب جيء بشركة خاصة زرعت أمام بيته الفاخر حفرا ومهملات ونفايات وقنينات وعلبا قصديرية من كلّ الأنواع، وأحضرت له ناموسا وصراصير وعناكب وذبابا من بلدة وادي الناموس العظيمة التي لم يخلق مثلها في البرّ. كأنها وسخ على وسخ.

أحسّ عبد الجليلبغبطة عارمة تعبر فلكه فضحك منتشيا بما رآه، وإذ سأله المدير العام عن حاله أجاب دون تفكير: الحمد لله على هذه النعمة. أنا سعيد جدا لأنكم وفّرتم لي ما كنت أحتاج إليه من شهور، كما كنت هناك، أعدتم لي هويتي المسلوبة، وحزين قليلا لأنكم لم تفكروا في استيراد بعض الجرذان، وهذا سند كبير لي. أعتبرالجرذان

قيمة مضافة، من عادتي أن أعبر حارتي بصعوبة. كانت هذه الكائنات تقاسمني السكن قانعة بقدرها، وقانعا بقدري ظللت. إنها من العائلة الكبيرة، وجزء من معنى بلدة وادي الناموس، ومن هويتي الحزينة التي لن أتخلى عنها أبدا. أنا جرذ قديم أيها السادة، ولن أبرأ من هذا الإحساس. لقد دبغني الألم وغدوت شيئا من الأشياء، كائنا لا يداوى لأنه مريض بالوراثة، متعب تاريخيا، مصاب بالدونية، فائض عن الحاجة أيها الناس. هل فهمتم هذا الشعور بالقهر؟

السعيد بوطاجين

هذه حكايتي التي لا معنى لها، أنا المواطن الفائض عن الحاجة منذ عام الأرز، ومن قبله وبعده، ومن فوقه ومن تحته، وشمالا وجنوبا، وبرا وبحرا وبصلا وعنكبوتا، وفي السنين العجاف التي ستأتي مكشرة، أو لن تأتي مثلا، أو تأتي ثم تفرّ بلا سبب، كما غيمة الصيف في وحدتها الخالدة التي تحدث عنها كتاب النهايات المؤلمة لصاحبه العبد الجليل المتوفى في عام الرمادة، وما أكثرها هذه الأعوام التي لا وجه لها، ولا وجهة معلومة:

يمّمت مُكرهًا شطر بلدية أولاد الكلب ذات غسق داج لاستخراج الوثيقة التي تؤكد أني لم أنفق بعد كأي دابة من دواب هذه البرية، لا في الزلازل ولا في الحرب الماضية التي طهّرت البلدة من أفاضلها، ولا في الفتن القادمة التي ستأتي على الشامي والبغدادي، وأمّا الأشرار فحياتهم طويلة كحياة النفاية الكبيرة التي ولدت فيها خطأ، وكنت آمل أن لا أجد في مكتب الهمّل من يدنّس فراشات يومي كما

لوّثوا سنواتي السابقة واللاحقة بما يشبه الخزي الأبدي الذي تهنا فيه راضين بقدرنا.

من عادتي أن أصادف في هذه المكاتب المخيفة كائنات تهدر كما يتحدث المطر على القصدير في شتاء مدينة الدهماء. لن أتريث كثيرا ولن أتنازل عن حقي في السبّ،سأنتقم هذه المرة من كلّ هبل التاريخ، أحتج عليهم بلا تقشف، أدخل في حرب خاسرة مسبقا،وسأضحك من شدة كلّشيء ولا شيء، ثم أخرجنسيا منسيا لأبقى بلا أمل، كما كنت مذ خلق الغمر والطين، مجرد اسم من الأسماء التي لا شأن لها، فأنا عدم مذ كنت هنا حشوا، شيئا من الأشياء القديمة، رثاثا ملقى في زاوية الوقت، ذاك هو إحساسي في مدن الدياثة العارمة التي بناها صاحب الرفعة وملأها وسخا بالألوان.

لاحظت عندما ولجت المكتب أنّ الموظف الشاب، منغمس في نفسه، منشغل جدا بهيئته التي كهيئة حسناء في مقتبل الورد، شيء ما منهمك في حلّ الكلمات المتقاطعة التي تنشرها جريدة الحزب الواحد الذي لم يكن له كفؤا أحد، وإذ شاهد الدفتر العائلي انخرط في قهقهة موزونة ومقفاة لفتت انتباه رئيس المصلحة والسناجب والرمّان والصراصير والفراولة والبغال في الإسطبل الكبير الذي ازداد اتساعا.قلت له في سري: خليفة أمّيٌّ ووزير عامّيٌّ، ثم انتشرعلى كرسيه وراح يمشط شعره ويتفقد أقراطه الذهبية الجديدة التي بدت لامعة في أعلى الأذنين الصغيرتين كأذني فأر مبلل بزيت المائدة،

ومن حين إلى حين كان يمسد حاجبيه الرقيقين، غير مبال بالطابور الذي بلغ أعنة الملل بانتظار أن ينتبه إليه.

ـ السعيد بوطاجين؟ قال لي الموظف مرسلا قهقهة مدوية من خلف الزجاج الذي أحاط به ذباب أزرق،دون أن يرفع رأسه ليبصر هذا الكائن الذي هو أنا، بجلدي ويأسي من البلدة التي تشبه طاحونة لا حدّ لها، وبأحزاني الموروثة مذ ولدت هنا دون أن أرتكب جريمة في حق السماء والأولياء الصالحين، أو في حق الكفرة الفجرة مثلا،ثم أردف بلغة ملوثة لا تبين: ما هذا العجب يا عمّي؟ لا عهد لي بهذا من قبل، هذه الأسماء والألقاب لا تصلحلزماننا يا الشيخ، انتهت صلاحيتكم من زمان وبقيتم أحياء تنافسوننا في السكن والأرصفة،خلّفكم الوقت ومضى، هذا جيلنا نحن، أسماؤنا أجمل من أسمائكم التي لا تشرّف الكوكب الأرضي. لماذا لم تتخلصوا منها أو تستبدلوها بأسماء مشرفة نافعة لا تجعلكم هزؤا؟ لو كنت مكانك لأحسست بكل خجل الدنيا، بؤس كبير ومعرّة أن تسمّى السعيد بوطاجين، أمر مضحك حقا. كيف قبلت هذه الشتيمة ولم تقدم شكوى إلى المحكمة؟

فكّرت، أنا المواطن اليائس الذي يعيش حالة ملل لا مثيل لها، وحالة شفق وفلق، وحالة غسق وقلق، وأجبته كالعهن المنفوش: قال لكم مولاكم الذين لا تعبدوه سوى عندما يكون لكم متسع من الإيمان:»لا تنابزوا بالألقاب ولا يغتب بعضكم بعضا»، ثمّ اعلم أيها الشيء السعيد المنتشر على الكرسي أنّ السعيد وسعد وأسعد

ومسعود وسعيد وسعاد وأمّ السعد وسعدية أسماء من القطن، وفأل خير. كانت هذه الأسماء البهيجة تطلق على العبيد والتعساء الذين تبددت أعمارهم في كلّ حدب وفج. كان ذلك تيمنا بالخير القادم، وهؤلاء أنظف منك ومن أسيادك الأشاوس الذين تلذذوا بتعبهم، وبدمهم المحزون عبر الوقت. الزعماء المضحكون أصبحوا كذلك بفضل العرق المسلوب، عرق هؤلاء وبكائهم، ذاك ديدنهم منذ ولادة المسؤولين.

لم يكن هناك إنسان في هذه المدن إلا نادرا جدا، كلّ ما كان مجرد كذب رقراق على التاريخ،مجرد سطو على الحقائق، مجرّد خرق بالية لا وزن لها. كان أولئك الملعونون واللصوص، وأسيادك اليوم وغدا، عصابات بنت مجدها على الدم، دم الجياع والغوغاء. هل فهمت أم لا؟ العالم مغشوش كلعبة القمار، كامرأة أخفتها المساحيق فغدت وجها آخر.

العالم يا هذا الشيء مجرد خربشة لا حدود لها، تحايل على السذج، وكلّ المسؤوليات عتبة من عتبات عوالم الشطّار الخارجين عن القانون. كلهم كذلك، من البارحة إلى السنين التي ستأتي مزوّرة مثلك، ومبهمة، ولا شأن لها. أمّا بوطاجين فحكاية طويلة سأقصها عليك عندماتستيقظ من وهمك وتصبح رجلا كالرجال الحقيقيين الذين شرّفوا أمّنا الأرض بجهدهم المفدّى، كأجدادك الذين كدّوا وعاشوا بعضلاتهم المفتولة، ودون أقراط ذهبية تتلألأ هناك، عارنا

الفادح في هذه المدن اللقيطة.

ـ لكني أحبّ سماعها اليوم، أصرّ الموظف مبتسما وهو يتأمل وجهه في مرآة كانت في حقيبته، ممرّرا أصابعه على الأقراط، متلذذا بالذهب الأملس البراق الذي يزيّن منظره، ثمّ أردف برطانة قضت على عصفورين أو ثلاثة في الحقل المقابل للبلدية الخربة: أحبّ الحكايات القديمة، حكاياتكم أنتم، أحلف لك برأس أمّي أني سأسكت وأسمع قصتك من أولها إلى آخرها، لا بدّ أنها ساحرة كقصص الغول وعائشة قنديشة التي كانت تقصها علينا جدتي.

اسمع جيدا إذن، لا تلبس أذنيك لتتعلم. اسكت أيها الحمأ المسنون، هل تعرف الحمأ المسنون الذي جئت منه بلا سبب؟ سأقص عليك ما حصل قديما، في ليل الأزمنة السحيقة التي لا أحد يذكرها اليوم، سأختزل لك الحكاية ليستوعب رأسك الصغير، ولو قليلا،إن كان لك رأس كبني آدم الذين صنعوا لك القلم والدفتر والكرسي والحاسوب. ثمّ أردفت ساخرا، غير مبال بضحكات الموظفين المتكئين على الكراسي كأكياس من روث الحمير: كان جدّ جدي تحت الفقر بأجيال، وكان هناك مرض مدرار يصعد من الأرض ويتدفق من السماء فيُرهق الأجساد المتداعية، وكان هناك عباد يتألمون لأنهم لم يجدوا قوتهم وأقوات دوابهم التي تيبست وصعدت أرواحها إلى البارئ مجللة بالحياء، وبجوع القرون اللعينة.

عثرت عليها، إنها هي بالذات والصفات، قال جدّ جدي

مبتهجاذات نهار أكحل بلغ فيه الثلج مترين وأزيد. كان الثلج صديقا وعدوّا، تارة بالورد وتارة بالمخالب الحادة التي تجعل الآمال نثارا، وكان الجوع يتجوّل في الأكواخ بحثا عن لقمة لسد الرمق. ذكر جدّي أن كوخ جدّ جدّه أصبح نقطة سوداء في مساحة من القطن المديد، قطن الثلج، وكان الناس حفاة عراة كفئران الكنيسة؟ هل تعرف معنى فأر الكنيسة؟ طبعا، لا تعرف، سميّ كذلك لأنه لا يجد هناك ظلّ خبز يابس يضعه في أمعائه الصغيرة، مجرّد ظلّ نحيل يخادع به بطنه.

- على أي شيء عثرت؟ سأله العبيد والجياع الذين تحلقوا من حوله سعداء بالاكتشاف، آملين أن يكون بركة تخرجهم من القلّة التي جعلتهم سرابا بقيعة، شيئا لا جغرافية له ولا لون، لا عين فوّارة ولا ما تيسر من الأعياد الجافة التي كانت تمرّ قربهم خببا، دون أن تلتفت إليهم لحظة لتسلّم على جثثهم الملفوفة ببرانس وخرق تشبه مسودات.

وجدت حبة قمح أيها التعساء، ما أبهى لونها، كأنها من ذهب، ردّ عليهم مبتسما وقد علت وجهه الكسيح غبطة نادرة، وجدتها في قفة مهملة في الخمّ مع الخردوات المختلفة، لا بدّ أنها نافعة،حبة قمح هبة من الخالق لمخلوقاته التي لا حظّ لها، سأبذرها في النادر البعيد أو في الضيعة لتمنحنا قوتا يكون طعاما لذيذاوقرّة عين. من يدري؟ رحمته واسعة في هذا القفر. تخلى عنّا الوقت وأبصرنا الخالق. لم نعد سرابا بقيعة كما كنّا، وكما عشنا.

اندهش الناس من قوله وظنوا أنه يفاكه كديدنه عندما تعمّ المسغبة

وتتلوّى الأجساد بردا وقيظا، وفي العام الموالي حصد من النادر سنبلة صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين. فركها وغرس سبعين حبة أكرمته بخمسمائة سنبلة ممتلئة، فرك السنابل وبذرها فأمدته بثلاثين ألف سنبلة، وبعد عام منحه الحبّ مليوني حبة زرعها وحصد ملايين السنابل، وكانت تبتسم مزهوة بلونها، ومع الوقت ملأ كلّ قفة خاوية وكلّ برميل وكلّ مطمورة. كانت المطامير حزينة كأحذية المتسولين، ثمّ أزهرت فجأة، ونسي الجياع جوعهم وسنين الذلّة التي جعلتهم زنوجا بالقوة. هل تسمعني يا فتى أم أتوقف عن السرد؟ سأضيف إذن، بعد إذن الشيطان وهذه المحنة:

كان الجيران يأكلون القمح الصلب ويدعون للجدّ بالرحمة في كل صلواتهم البهية. كانت صلواتهم بالأبيض والأسود يا أيها الشيء العجيب، عفوية وفاتنة جدا، كما البنفسج أو أجمل،وكانت أدعيتهم تخرج من الروح وتصعد إلى السماء متوضئة كما الفراشات والوردة والنحلة والماء. لم تكن كأدعية اليوم التي بالكعب وأحمر الشفاه، بالقفازات وربطات العنق المستوية. لا. لا. لم تكن مهندمة أبدا. كانت بسيطة ورثة، وطيبة جدا، كما تزقزق العصافير في أعلى الشجرة فرحة بالربيع والجدول. أمّا صلواتكم الملوّنة فمخيفة. تشبه أنياب الوزير، تشبه الفتنة المشرئبة النية.كان الأجداد يعرفون الله بقلوبهم لأنه هناك، وأمّا اليوم فيتقربون إليه بالأمعاء الغليظة، بالإسمنت والعقار، بالرياء العظيم الذي غدا كعبة، لكنّ قلوبهم خاوية من الضوء، ومنه. هذا هو الفرق. لذلك سختم وساخت مدنكم اللعينة.

المهمّ أيها الشيء المهمّ الجالس على الكرسي الفاخر: بعد الحصاد هاجرت المجاعة إلى جهة ما وتفتحت الضيعة التي اكتسبت لونا أخضر لا عهد لهم به. وفي نهار قائظ فكّر جدّ جدي وقال من تحت الشجرة الظليلة التي ربّتها يداه المتربتان: يجب أن أغرف شيئا لا أعرفه. أطحن القمح مثلا. قد يكون طحنه مفيدا لوجبة ما. من يدري؟ يجب أن أستشير العجوز والسكان، سيفكرون معي. أمرهم شورى بينهم. لماذا لا نجرّب شيئا من الأشياء؟ ألم يقولوا إن الحاجة أمّ الاختراع؟ نخترع طبقا شهيا يكون لنا عيدا خالدا يرافقنا في هذه المجاعة.

صنع من الحجر الصلد طاحونة وأكل الدقيق. وجده طيبا، لكنه كان خانقا. ينزل إلى الحلق كالجبس. ثم جلسوفكّر وتساءل: لماذا لاأرشّه بالماء؟ أكل لقمة واحدة ليعرف طعم ما حضّر بعد لأي. لاحظ أنّ العجين أضرّ به فجلس وفكّر ثانية كحبة التين في عليائها: لماذا لا أشويه أو أقليه؟ لماذا لا يكون شيئا طازجا ولذيذا؟ لكنه عجز عن إيجاد الحلّ، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي كبقية أيام الله. لاحظ أنّ حرارة الشمس تجعل الصخور حامية فاهتدى إلى فكرة. طبخ خبزا ووضعه فوق حجر مستوٍ وانتظر مطمئنا. كان طعمه أفضل، لكن جدّ جدي لم يهنأ. كان يجتهد لإيجاد شيء لم يعرفه أحد من قبل.

ـ خلق البارئ أبانا آدم من طين فسوّاه. عظيم هو الطين، منه سأصنع آنية أسميها «الطاجين»، وعليه سأضع هذا العجين فيصبح غذاء لي

ولأهل الضيعة أجمعين. قال ذات مرة وهو متكئ على شجرة القسطل المباركة التي تحاذي الكوخ الصغير الذي بناه بجهده، وبترانيم الروح التي أكرمته وغنت له في محافل الوحدة.

استوى العجين خبزا فابتهج الناس لمّا رأوه مبتهجا واقتاتوا شاكرين وهم يستنشقون رائحته الغريبة التي بدت شاهقة وبليغة، ثمّ زرعوا القمح والشعير احتذاء بالشيخ الذي علّمه الجوع كيف يصنع من حبة القمح مجدا تناقلته القبائل والأجيال مغتبطة بالاكتشاف الذي أخرجها من الحفرة السحيقة إلى ضوء الإنسان.

ومع الوقت سميّ الشيخ الجليل أبو طاجين. هل تعرف لماذا؟ كان الوحيد الذي ابتكر الخبز الطازج قبل قرون، أمّا أجدادك أنت، إن كانوا يشبهونك، إن كانت لهم أقراط ذهبية، فكانوا يأكلون البلوط والحشائش البرية وبعض الجيف ولحم الخنزير نيئا. اسمع جيدا هذا الذي سأقوله لك باختصار: قال لي جدي عن جدّه صالح، عن جده أحمد المتوفى في عام القمل: سيأتي وقت كريه لا يطاق، أخياره تحت الأرض وأسافله فيأعنة السماء يعمهون، وسيأتي شخص كريه جدا اسمه... ما اسمك؟

ـ فوفو. ردّ عليّ الموظف وهو يصقل شعره ويداعب أقراطه البراقة المتدلية من أعلى الأذنين المحمرتين من شدة الدفءوالكسل الذي أصبح بنظارتين وكرسي فاخر.

ـ أجل. بالضبط. اسمه فوفو الذي قدم من أرض زبلون. أكدت له، ثم أردفت غير مبال: وفوفو هذا ليس ذكرا وليس أنثى وليس وردة أو شمعة، ينتشر على الكرسي ويهتم بمجوهراته، يصبغ شعره بالأصفر ويقلم أظافره خلف المكتب والناس ينتظرون أفواجا، يقضي وقته مع الكلمات المتقاطعة، يأتي إلى العمل في العاشرة ويخرج من العمل في العاشرة إلا عشر دقائق ليرتاح من التعب. غريب،كيف تنبأ جدّ جدي بكل هذه التفاصيل الدقيقة؟ هل كان يعرفك قبل ولادتك بعشرات السنين؟ هل تنبأ بذلك في وحدته وفي جوع السنين؟

ثمّ تأملته جيدا، من طفولته إلى المستقبل، وقلت له غير مبال بدهشته المربعة الشكل: أعد لي الدفتر العائلي لا أكرمك الله ولا أعزّك يا كيس النفاية، لقد لطخته كثيرا بقلادتك والسواك. ما أكثر البهاليل في بلدة أولاد الكلب، وما أوسخهم. أنا لست بحاجة إلى شيء، أكثر من حاجتي إلى بلدة تبصر حقيقتها في المرآة العاكسة وترثي حالها كأرملة منسية. هذه وصيتي لك فاتبعها لتصبح سيدا من العذارى: عليك أن تعتني جيدا بشعرك وأقراطك إن كانت لك أو لأختك. ذاك مستقبلك في مدن العار التي أقفرت من الحياء والفضيلة...يا فوفو العجيب. عليك أن تنام الآن. ليلة سعيدة في وضح النهار.

ليلتك أسعد، علّق رئيس المصلحة وهو يتثاءب، ثمّ أردف بعد أن أشعل سيجارة وراح ينفث دخانها باستعلاء: افعل ما شئت إن

استطعت، ولن تستطيع، هؤلاء هم نحن، ولدنا هنا، وهنا نموت، سنعذبكم عذابا أليما، اليوم وغدا.

....

يا للكابوس الجميل، قلت في سري عندما استيقظت. كنت متكئا على حائط الغرفة أحمل كتاب المسخ عندما غفوت. لكنّ الواقع كان أكبر من الكابوس، شيئا كالموت.

مقدمة متأخرة

كتبت هذه القصص في سياقات مخصوصة، وفي ظروف نفسية متأزمة كالعادة، وذلك لتوفر كلّ الشروط الموضوعية لهذا الإحساس بالقرف العام، من المحيط والعلامة والموضوعات الميتة. كان وقتي سرياليا، أو شيئا ما يشبه لا شيء، ومع ذلك كابرت، لا أدري كيف، لكني عشت بقدر قادر، وعرفت، بحكم التجربة التي شحذتها مرارة الوقت، أني لم أقل جيدا ما كنت أنوي قوله بأنظمة سردية أخرى أكثر قدرة على وصف حالة الإحباط التي عشتها مذ عرفت الدنيا، ولم أعرفها من كثرة الدابة.

الكتابة نفسها غدت موضع سؤال فلسفي ووجودي مركب بالنسبة إليّ، وبالنسبة لآخرين، هل يجب علينا أن نكتب عندما تكون اللعنة أكبر من اللغة؟ أقوى من قدراتنا التعبيرية قاطبة؟ ولمن نكتب؟ ولماذا؟ ستصبح الكيفية في درجة أدنى عندما نعرف حجم العبث السائر في طريق النموّ. القراءة نفسها أصبحت صفرا. هكذا نواجه

أنفسنا بخيبة: اللاجدوى، ذاك هو الإحساس الذي ظلّ مهيمنا عليّ في هذه الأجواء التي لا تطاق: القدم أفضل من العقل وأرقى، عقولنا نحن في أقدامنا وأمعائنا، في هذا الرياء العظيم الذي يجلّل اللحظة. يا للعنة.

لقد عشت خطأ في وقت عجيب لا يطاق، جئت قبل الوقت أو بعده وعرفت كلّ الحالات العابثة التي مررت بها في محيط مناوئ للدنيا، ولكل ما له علاقة بالفكر والكتابة والعقل والبسملة. لم أكن أرغب في أن أصبح كائنا متفائلا في نفاية بحجم البلدة. لا رغبة لي في ذلك، التفاؤل الساذج مهنة من لا حسّ له ولا موقف، وخيار الذين يعيشون مطمئنين وقد ابتزوا العالم، دون أن يشعروا بالخجل من الله والفراشة. بمقدور هؤلاء أن يعيشوا سعداء لأنهم معفون من الأسئلة المريرة.

أقدّر أنّ هذه السياقات العربية مفيدة لوجود بهيمي كاسح. لا أفق لنا سوى الطمي، ما عدا هذاالرماد العام الذي لن ينتج سوى كائنات سخيفة، أو مخيفة: المسخ الأعظم يحيق بنا من كل جهة، كما العمى، وما تيسر من اليأس العارم، وهناك الكذب العابر للقارة. نحن مجرّد كذبة كبيرة بفستان أزرق أو أبيض وطاقية، بربطة عنق ونظارات شمسية راقية، أولئك هم نحن، ومن يقول العكس فليتأمل نفسه في مرآة المحنة. من هذا الذي يستطيع أن يرفع رأسه بشجاعة الإنسان

المضيء ويقول ها أنا؟ انسخنا كلنا، بالعامية والفصحى.

لأي شيء تصلح الكتابة إذن؟ للترويح عن الموتى؟ لم أجد سببا واحدا للاستمرار في السرد الكسيح. كان كلّ ما حولي مظلما، لكني فعلت ذلك تكريسا لعادة سيئة استمرت معي أعواما. ما أتعسنا في هذه البيئة، وما أوسخ العمر الذي تحمّل كلّ هذه الحثالة. يؤلمني أن يقول أحفادنا كنتم قردة، أوساخا كبيرة، وعارا على البيئة. يؤلمني جدا أن ينكّلوا بعظامنا المسالمة، الخائفة من بطش السلطان والحاشية، وبطش أطماعنا. ما أتعس من مرّ من هنا، وفي هذا الوقت، مزهوًّا بغبار الكرسي، أو بانحناء الكلمة.

أيتها السيدات أيها السادة الأشاوس، يا من ملأتم الفضاء صمتا وصخبا: ها إني أبدد وقتكم سدى. يشهد الطير وتراب الوطن أني بريء منكم ومن هذه المرحلة، بريء من الفعل والحالة، من الراعي والرعية، من دم البنفسج في الضيعة. الحق أقول لكم: أن تقرأوا ما كتبته أو لا تقرأون، أن تجدوا فيه عسلا أو قطرانا، راحة أو قلقا، أفقا رحبا أو حفرة، وردا أو عناكب بالجملة، فتلك ليست مشكلة كبيرة، مشكلتي هي الدنيا، هذه النفايات، وهذه الوجوه المرعبة التي تربك البرعم والنملة. لا قدرة لي على مواكبة المرحلة، على الشعور ببذرة سعادة هنا، بقليل من الضوء يعبر النفس التي ولدت ميتة في هذه الجغرافيا، لذلك أكتب دائما قصصا حزينة تشبه موتي، وتشبه

بكاء الغيمة: ذاك أنا. نسيت الفرح من الولادة وانخرطت في التيه والأسئلة. هنيئا لي ولكم هذه السياقات البهيمية التي عشناهااليوم وغدا بالدارجة والفصحى.كدت أقول اللعنة علينا... لولا.

كتبت نصوص هذه التّجربة في مستغانم، الجزائر الشقيقة، خلال عامي 2016 و2017.

كتبت هذه القصص في سياقات مخصوصة، وفي ظروف نفسية متأزمة كالعادة، وذلك لتوفر كلّ الشروط الموضوعية لهذا الإحساس بالقرف العام، من المحيط والعلامة والموضوعات الميتة. كان وقتي سرياليا، أو شيئا ما يشبه لا شيء، ومع ذلك كابرت، لا أدري كيف، لكني عشت بقدر قادر، وعرفت، بحكم التجربة التي شحذتها مرارة الوقت، أني لم أقل جيدا ما كنت أنوي قوله بأنظمة سردية أخرى أكثر قدرة على وصف حالة الإحباط التي عشتها مذ عرفت الدنيا، ولم أعرفها من كثرة الدابة.

لقد عشت خطأً في وقت عجيب لا يطاق، جئت قبل الوقت أو بعده وعرفت كلّ الحالات العابثة التي مررت بها في محيط مناوئ للدنيا، ولكل ما له علاقة بالفكر والكتابة والعقل والبسملة. لم أكن أرغب في أن أصبح كائنا متفائلا في نفاية بحجم البلدة. لا رغبة لي في ذلك، التفاؤل الساذج مهنة من لا حسّ له ولا موقف، وخيار الذين يعيشون مطمئنين وقد ابتزوا العالم، دون أن يشعروا بالخجل من الله والفراشة. بمقدور هؤلاء أن يعيشوا سعداء لأنهم معفون من الأسئلة المريرة.

ISBN 978-9931-677-24-6



